وحدة البيت
بين
البلاغة العربية ...
ولسانيات النص

إعداد

صالح أحمد عبد الوهاب

الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد

ملخص بحث :

وحدةُ البيتِ بين البلاغة العربيَّة ... ولسانيَّات النصّ

صالح أحمد عبد الوهاب

الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد

البريد الإلكتروني:saleh_hahmed@hotmail.cim

تتناول الدراسة ظاهرة " وحدة البيت" في التراث البلاغي، وما سجَّلته لسانياتُ النَّصّ في منتصف القرن العشرين من خلوُّ البلاغة العربية من المعالجة النصِّيَّة، التي تنظر للنصّ على أنَّه وحدة كبرى يكون التفاعل معه في إطار النشاط الكلي للنصّ، وليس في إطار الجملةِ وصحةِ الإسنادِ واستيفاءِ المكوناتِ البلاغيةِ... وهو اتِّهامٌ واضحٌ– من قبل اللسانيات النصية– في منهجية علم البلاغة، يقوم على انحياز البلاغة التام إلى الجزء على حساب الكل، مما عوَّق البلاغة العربية عن القيام بدورها، وحصرها في إطار الناحية الشكلية... وقد ناقشت الدراسة هذا الاتهام، وأظهرت مخالفته لأسس النقد المنهجي الذي يدعو إلى تعليل تلك الظاهرة في بيئتها وثقافتها ثم الحكم عليها في ضوء معطيات هذه البيئة وتلك الثقافة، وهذا منهجٌ أصيلٌ من مناهج العلم والبحث.

وقد أرجعت الدراسة هذه الظاهرة في التراث البلاغي إلى طبيعة البيئة الجاهلية التي تعتمد التنقل والترحال، مما أدَّى إلى الاهتمام باللمحة الدالة والعبارة الموجزة، وسيطرة الملاحظة الجزئية بالإضافة إلى شيوع الأمية، وندرة الكتابة ، فضلا عن عناية العرب بوحدة البيت حفاظًا على الإيقاع الموسيقي الناتج عن اعتدال الأجزاء واستيفاء المعاني.

وفي النهاية أكدت الدراسة أسبقيةَ البلاغة العربيَّة إلى المعالجة النصية؛ من خلال الحديث عن (المطابقة) و(العناصر الخارجية) و(خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر)، وكلها اعتبارات خارجة عن النص إلى زمان النص ومكانه وعلاقة المتكلم بالمخاطب وطبيعة العصر وثقافته وظروفه السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك مما سَمَّتْهُ اللسانيات النصية بالعلاقات الخارجية للنصِّ، أما عن العلاقات الداخلية للنص فخير ما يمثلها نظرية "النظم" وعبارات "النسج" و"التحبير" و"الوشي" و"البناء" و"النقش" في التراث البلاغي، وهي مصطلحات تحمل دلالاتٍ مهمةً في الدراسة النصية

Summary

The unity of the house between the Arabic rhetoric … And the tongues of the text.

Saleh Ahmed Abdul Wahab

Assistant Professor in The

Department of Rhetoric and Criticism

saleh_hahmed@hotmail.cim

The study deals with the phenomenon of "unity of the house" in the rhetorical heritage, and the linguistic linguistics recorded in the middle of the twentieth century of the absence of Arabic rhetoric from textual processing, which considers the text to be a major unit that interact with it within the overall activity of the text, The rhetorical components … a clear accusation - by the linguistic linguistics - in the methodology of rhetoric, based on the bias of complete rhetoric to the part at the expense of all, which hindered Arab rhetoric to play its role, and confined within the formality … This study discussed this Charge, showed Khafatth of the foundations of systematic criticism, which calls for explanation of this phenomenon in its environment, culture, and then judged in the light of the data of this environment and that culture, and this is an authentic approach of science and research methods.

The study attributed this phenomenon in the rhetorical heritage to the nature of the ignorant environment, which depends on mobility and migration, which led to attention to the brief and summary words, partial control of control, illiteracy and scarcity of writing, as well as Arab care of the unity of the house in order to preserve the musical rhythm resulting from moderation Parts and interpolation of meanings.

In the end, the study confirmed the primacy of Arabic rhetoric to the textual treatment; by talking about (conformity) and (external elements) and (exiting speech contrary to the apparent requirement), all considerations beyond the text to the time and place of the text and the relationship of the speaker to the communicator and the nature of the age, Social, economic, and other so-called linguistic linguistics in the external relations of the text. On the internal relations of the text, what is represented by the theory of "systems" and the terms "weaving", "inking", "wushi", "construction" and "inscription" Has important implications in the textual study

مقدمة

أحمدُك اللَّهم، وأستعينُ بك وأستهديك، وأؤمنُ بك وأتوكَّلُ عليك، وأبرأ إليك من حولِ العالمين وقوتهم، لاحول ولا قوَّة لي إلَّا بك... وأُصلي وأُسلم على صفوة خلقك ومصطفاك سيدنا محمدٍ– صلى الله عليه وسلم– وعلى آله وصحبه وذريته وأمهاتِ المؤمنين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمَّا بعد...

فإنَّ أوْلَى ما يجبُ صرفُ الهمم إليه، وبذلُ النفسِ والنفيسِ في الحرص عليه هو قراءةُ كلام السابقين... قراءةٌ تضيف لحياتنا حياةً، ولمعارفنا مِدادًا، ولعقولنا آفاقًا، ولبصيرتنا استنارة، حتى وإن اختلفت تلك القراءة، فوقفتْ طائفةٌ موقِفَ المحافظِ الأمينِ المكتفي بالشرح والتقرير، أو وقفتْ أخرى موقِفَ المُستنبطِ من علومهم علمًا، ومن معارفهم فهمًا وفكرًا، أو سلكتْ ثالثةٌ مَسلَك المتتبّع لِمَا فاتهم من تقصيرٍ في تأسس نظريةٍ أو ضبطِ منهجٍ أو وضعِ مصطلحٍ... فذلك كلُّه خيرٌ.

وأيُّ خيرٍ أفضلُ من جهودٍ يربط بينها رَحِمُ العلمِ، ووشائجُ المعرفةِ، ولحمةُ الفكر؟! وقديمًا قال صاحب الوساطة:"ولَمْ تزَل العلومُ – أيّدك الله – لأهلِها أنسابًا تتناصرُ بها، والآدابُ لأبنائها أرحامًا تتواصل عليها، وأدنى الشِّرك في نسب جوارٍ، وأولُ حقوقِ الجارِ الامتعاضُ له، والمحاماةُ دونه، وما مَنْ حَفِظَ دمَه أنْ يُسفك، بأوْلى ممّن رَعى حريمَه أنْ يُهتك، ولا حرمةَ أوْلى بالعناية، وأحقُّ بالحماية، وأجدرُ أنْ يَبذُلَ الكريمُ دونها عِرضَه، ويمتهنَ في إعزازها

مالَه ونفسَه من حُرمة العلم الذي هو روْنَقُ وجْهِه، ووقايةُ قدْرِه، ومَنارةُ اسمه، ومَطيّة ذِكره"[١].

ومن الخير أيضًا مواكبةُ حركةِ العلم ومسايرةُ المعرفةِ التي ما لها من نفاد، ...وقديمًا قال ابن قتيبة: "ولمْ يَقْصرِ اللهُ العلمَ والشعر والبلاغة على زمنٍ دون زمنٍ، ولا خصّ به قومًا دون قومٍ، بل جعل ذلك مشتركًا مقسومًا بين عباده في كلّ دهرٍ، وجعل كلّ قديمٍ حديثًا في عصره، وكلَّ شريفٍ خارجيًّا في أوّله، فقد كان جريرٌ والفرزدقُ والأخطلُ وأمثالُهم يُعَدُّون محدثين. وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد كثُر هذا المُحْدِثُ وحَسُنَ حتّى لقد هممتُ بروايته...ثمّ صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم، وكذلك يكون مَنْ بعدهم لمَنْ بعدنا، كالخريميّ والعتّابيّ والحسن بن هانئ وأشباههم. فكلّ مَنْ أتى بحسن من قولٍ أو فعلٍ ذكرناه له، وأثنينا به عليه، ولم يضعه عندنا تأخّرُ قائلِه أو فاعلِه، ولا حداثةُ سنِّهِ. كما أنّ الرّديء إذا ورد علينا للمتقدّمِ أو الشريف لم يرفعه عندنا شرفُ صاحبِه ولا تقدّمُه"[٢].

وتظاهر علماؤنا الكرام البررة على هذا المعنى من التجرُّد والإنصاف... فقريبٌ من هذا ما ذكره صاحب الوساطة: "... وكما ليس من شرْط صِلَة رحمك أن تحيف لها على الحق، أو تميلَ في نصرها عن القصد، فكذلك

١ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه– المؤلف: أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني (المتوفى: ٣٩٢هـ)– تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي– الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه– ص ١.

٢ـ الشعر والشعراء– المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري– الناشر: دار الحديث، القاهرة– عام النشر: ١٤٢٣ هـ، ص٦٤

ليس من حُكم مراعاة الأدب أن تعدِل لأجله عن الإنصاف، أو تخرج في بابه الى الإسراف"(١).

وإنَّما أردتُ بهذه التقدمةِ أنْ ننظرَ إلى قضية (وحدة البيت) في البلاغة العربية نظرةً بعيدةً عن آثار التحاملِ والتعصبِ والهوى... فإذا كان الحبُّ يعمي عن المساوئ، فإنَّ البغضَ -أيضًا- يعمي عن المحاسن ويصم.

وهذه النظرة الموضوعيَّة تَعصِمُنا من التعصُّب المُضر، والجزم بمنهجية الدراسة النصية في البلاغة العربية، وتعصمنا كذلك من تلك الدعاوى التي تقصر علم البلاغة على مجال الجملة والبيت الشعري دون أدنى مراعاة لجهود العلماء حول النصِ القرآنيِ والنصِ النبويِّ، ونصوص أساطين العرب شعرًا ونثرًا.

وقد اخترتُ أنْ تكون تلك النظرة الموضوعيَّة تحت عنوان:"وحدةُ البيت بين البلاغة العربيَّة ... ولسانيَّات النصّ" بعدما ولَّى بعضُ الباحثين وجهتَهم قِبلَ علمِ الأسلوبيةِ والتداوليةِ وعلمِ النصِ، وحجتُهم في ذلك اتِّساع مدلولات تلك المصطلحات (الأسلوب- التداول- النصّ) بما يَفْضُل البلاغةَ العربيةَ- من وجهة نظرهم- حيث لم يعد الأمر مقصورًا على النصِ الفصيح أو البلوغِ والانتهاءِ أو النظرةِ الجزئيةِ الضيقة، كما هو معهودٌ في البلاغة العربية على حدِّ زعمهم.

وما أدهشني وأثار تعجبي أنَّ بعض الباحثين أضحى لا يفرق بين لسانيَّات النصِ كعلم -يفارق البلاغة العربية من حيث الأدوات والحدود وطبيعة المادة المدروسة- والبلاغة العربية كعلم عربي أصيل مَعْنِيّ بفصيح القول والبحث

١- الوساطة بين المتنبي وخصومه - ص ١، ٢.

في وجوه الإعجاز القرآني والبيان النبوي وأساطين العرب شعرًا ونثرًا؛ سعيًا إلى وحدة اللغة والتفكير والثقافة.

وجاء البحث تحت هذا العنوان في مقدمةٍ وثلاثةِ فصولٍ وخاتمةٍ وقائمةٍ بالفهارسِ والمراجع:

أمَّا المقدمةُ فقد عُنيت بأهمية الموضوع والدافع إليه.

وأمَّا الفصلُ الأوَّل: فعنونت له بـ"البلاغة العربيَّة ولسانيات النصِّ"، وجاء ذلك في مبحثين:

المبحث الأوَّل: مدخلٌ إلى البلاغةِ العربيةِ.

المبحث الثاني: مدخلٌ إلى لسانيَّات النصِّ.

والفصلُ الثاني: تحدثتُ فيه عن وحدةِ البيت، واشتمل ذلك على ثلاثة مباحث:

المبحثُ الأوَّلُ: وحدةُ البيتِ في التراث البلاغي.

المبحثُ الثاني: وحدةُ البيتِ في ضوءِ لسانيّات النصِّ.

المبحثُ الثالثُ: مآخذُ لسانياتِ النصِّعلى البلاغة العربيَّةِ.

والفصلُ الثالثُ: تحدثتُ فيه عن مآخذِ اللسانياتِ في ميزان النقد، وجاء ذلك في مبحثين:

المبحثُ الأوَّل:حقيقةُ النظرةِ الجزئيةِ في التراث البلاغي.

المبحثُ الثاني:النظرةُ الكليةُ في البلاغة العربية.

وأمَّا الخاتمةُ: فقد جاءت في أعقاب تلك الفصول موضحةً أهمَّ النتائج التي توصلتْ إليها الدراسة.

وبعد...

فإنْ وفقتُ في رصد قضيةِ وحدةِ البيتِ وموقف البلاغيين واللسانيين المحدثين منها فبحمدالله وتوفيقه، وإنْ لم أوفقْ فأرجو ممن أتيح له الاطِّلاع على هذه الدراسة أن يُقوِّمَ ما اعوجَّ منها ويُجلِّيَ ما غمُضَ فيها؛ وفاءً بحقِّ العلم وبذلاً للنصيحة.

والحمد لله أولاً وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا...والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

صالح أحمد عبد الوهاب

الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد

البريد الإلكتروني:saleh_hahmed@hotmail.cim

الفصل الأول:

البلاغة العربية ولسانيات النص

****

المبحث الأول: مدخل إلى البلاغة العربية.

المبحث الثاني: مدخل إلى لسانيات النص.

المبحث الأول: البلاغة العربية

لا يكون الكلامُ بليغًا حتَّى يتوفر فيه شرطان: أحدُهما: الفصاحةُ، والآخرُ: المطابقةُ، وهذا ما انتهى إليه المتأخرون في تعريفهم للبلاغة، كما جاء في تعريف الخطيب القزويني"مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"(١).

فلا بلاغةَ بدون فصاحةٍ،وهذا يفسِّر لنا سرَّ استدراك الجاحظ على العتابيّ في تعريفه للبلاغة "**كل ما أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ**"(٢)، وحجة الجاحظ في تعليقه على كلام العتابيّ؛ أنّ ذلك التعريف يقلل من قيمة البيان واللسان، لأننا نستطيع أن نفهم إشارات الأخرس، وحمحمة الفرس، وعواء الكلاب، وغيرها من الحيوانات والطيور، فاشترط الجاحظ في الإفهام أن يكون بلفظ فصيح؛ لأنَّ عمومية التعريف تجعل اللكنة، والفصاحة، والخطأ، والصواب، والإغلاق، والإبانة، والملحون، والمعرب، كله سواء وكله بيانًا، وكيف يكون ذلك كله بيانًا؟! فنراه يقول:"وإنما عنى العتابي: إفهامك حاجته على مجاري كلام العرب الفصحاء"(٣).

والتزام البلاغة العربية بالنصِّ الفصيح، من أجْلِ توحيد اللسان العربيّ وما يتبعه من توحيد الثقافة والفكر والمجتمع والعبادة، ومن ثمَّ فالبلاغة العربيَّة تسعى إلى تأسيس رؤيةٍ عربيةٍ تتجلَّى فيها وحدةُ اللغة العربية،

١ـ ينظر شروح التلخيص – دار الكتب العلمية– بيروت– بدون تاريخ– الجزء الأول– ص١٢٢.

٢ ـ البيان والتبيين جـ١ صـ١١٢.

٣ـ البيان والتبيين جـ١ صـ١٤٨.

كالصلاة والصوم والحج، وهو مقصدٌ من أجلِّ مقاصد البلاغة العربية، وأنَّ العاميَّة على انتشارها واتساع محيطها لا تحمل ما تحمله الفصحى من قيم العرب وثقافتهم وميولهم واتجاهاتهم ومعارفهم وعاداتهم وتقاليدهم، ولا يُتصور منها أن تكون وحدةً للتفكير أو نقطةَ تلاقٍ في المقاصد والغايات؛ لأنَّها لا تعدو إلَّا أن تكون نتاج تجمع لهجي في فترةٍ زمنيةٍ معدودة ومساحة جغرافية محدودة، بخلاف الفصحى الممتدة عبر عصورها المختلفة وأطرافها المتشعبة المترامية.

إضافة إلى ما سبق...فإنَّ البلاغة العربيَّة لم تُعْنَ بفصيح القول إلَّا لأنَّه يقترب من لغة القرآن وأساليبه، وبها يمتاز كلامٌ عن كلامٍ ومعانٍ عن معانٍ، ولذا ظلت النصوص الفصيحة هي عناية البلاغيين، وميدان الدَّرسِ البلاغي، وبقيتْ معاييرُ الجودة في الألفاظ هي الشرط الأساس الذي لا يفارق البلاغة منذ كلام الجاحظ (مجاري كلام العرب الفصحاء) حتى تمَّ التأكيدُ على ذلك في تعريف المتأخرين للبلاغة العربيَّة: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته(١).

ولا بلاغة بدون مطابقة: والمراد بالمطابقة: مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى حال المخاطب، وأحوال المخاطب متعددة، لا يشبه حالٌ حالاً، ولا مقامٌ مقامًا، ومن هنا قيل: لكل مقامٍ مقالٌ، وأكدتْ البلاغة على هذا المعنى من خلال مباحثها ومسائلها، فليست المزيَّة في التقديم أو التأخير، أو الذكر أو الحذف، أو الإضمار أو الإظهار، أوالتعريف أو التنكير، أو الفصل أو

١- ينظر شروح التلخيص – دار الكتب العلمية- بيروت- بدون تاريخ- الجزء الأول- ص١٢٢.

الوصل، أو الإيجاز أو الإطناب أو المساواة، أو سائر فنون البلاغة على الإطلاق إذا لم يتطلبها المقام، ويستدعيها السياق، وإلا فمن أين لنا أن ندرك فضلَ كلامٍ على كلام ونميِّزَ نظمًا على نظم إلَّا من خلال كون الشاعر قدَّمَ وأخَّرَ، وعرَّفَ ونكَّرَ، وأظهرَ وأضمرَ، وفصلَ ووصلَ، وأوجزَ وأطنب... استجابةٌ منه للمقام ومراعاةٌ للحال؟!

وبهذين الشرطين(الفصاحة- المطابقة) فارقتْ البلاغةُ العربيَّة لسانيَّات النصّ من زاويتين:

الأولى: أنَّ علم البلاغة منذ بدايته مرتبط بفصيح القول شعرًا ونثرًا، ولعلَّ هذا يوضح لنا سبب عدم انتشاره؛ حيث وضع حاجزًا بينه وبين دراسة العاميّ المبتذل، والغريبِ الوحشيّ، والمخالفِ لقواعدِ النحو، والمختلِّ نظمُه سواء من جهة لفظه أم من جهة معناه، فهو لا يدرس الأحاديث اليوميَّة واللهجات العاميَّة ...بخلاف علم النصِّ الذي يعني بحكم اتِّساعِ مدلولِه دراسةَ النصوص بكافة أنواعها، الفصيحِ وغير الفصيحِ، ومن ثمَّ يدخل تحته عددٌ هائلٌ غيرُ محدود من النصوص: منها المحادثاتُ اليوميةُ والأحاديثُ العلاجيةُ، وسائرُ الأجناسِ الأدبيةِ كالقصة والأقصوصة والرواية والمسرح ... وسائر أنواع الخطابات الإعلاميَّة والرياضيَّة والتسويقيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة.

الثانية: أنَّ علم البلاغة علمٌ معياري مرهون بالمطابقة، فلا يعدُّ الكلام بليغًا إلَّا إذا طابق الحال والمقام، بخلاف علم النص الذي لم يراعِ مبدأ المعيارية، فإنَّه وإن راعى المطابقة(المقامية) ضمن معاييره السبع التي نادى بها (دي بوجراند) إلَّا أنَّ هذا لايمنع من الدِّراسة، فالنصوص عنده قابلة للتحليل أيًّا كان نوعها فصيحةً أم غيرَ فصيحةٍ، مطابقةً أم غيرَ مطابقةٍ.

إنتاج الخطاب وتحليله.

على الرُّغْم من الاختلاف- الواضح- بين علمي البلاغة ولسانيَّات النصِّ من حيث طبيعة المادَّة المدروسة وإقرار مبدأ المعيارية- إذ يُعنى علمُ البلاغة بالنصِّ الفصيح دون غيره من النصوص، وإقرارِ مبدأ الصوابِ والخطأ، بينما لايلتفتُ علمُ اللسانيَّات النصيَّة لهذين الأمرين- فإنَّ هناك نقاط اشتراك بينهما؛ وهي عنايةُ كلٍّ منهما بالخطاب – إنتاجًا وتحليلاً- فقد شُغل اهتمامُ البلاغيين بإعداد الأديب القادر على إنتاج وتحليل النصوص ومعايشتها وتمييز جيدها من رديئها، بل جعلتْ البلاغةُ هذا المطلب مقصدًا من مقاصدها العامة التي تتجاوز فيه الغرض الديني؛ بغيةَ الوقوفِ مع الأسرار البلاغية في فنون القول ومراحل الإبداع، وكما يقول العلويُّ متحدثًا عن علم البلاغة:"واعلم أنَّه يراد لمقصدين...المقصد الثاني: مقصد عام لا يتعلق به غرض دينيّ: وهو الاطِّلاع على أسرار البلاغة والفصاحة في غيرالقرآن، في منثور كلام العرب ومنظومه، فإنَّ كلَّ مَنْ لا حظّ له في هذا العِلْمِ لا يمكنه معرفةُ الفصيحِ من الكلام والأفصحِ، ولا يدرك التفرقةَ بين البليغ والأبلغ"(١).

وفي هذا النصِّ النفيس ما يؤكدُ أسبقيةَ البلاغة العربيَّة إلى الاهتمام بالخطاب- إنتاجًا وتحليلاً- وليس كما يدَّعي بعضُ المحدثين أنَّ القرآن قد استوعبها، فليس لها مُتَقَدِّمٌ عنه أو مُتَأخرٌ، أو أنَّها معنيَّة بتحليل الخطاب

١- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز- تأليف- الإمام يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني- تحقيق: عبد السلام محمدهارون- دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م- ص١٨.

القرآنيّ دون غيره، أو أنَّ الأجيال القادمة في حاجة إلى علم آخر يهتمُّ بإنتاج الخطاب وتحليله بأجناسه الأدبية المختلفة؛ شعرًا ونثرًا وروايةً وقصةً ومقالاً ومسرحيةً وملحمةً ... وغير ذلك من اتِّهاماتٍ تَنِمُّ عن قصورٍ في الإحاطة بمقاصد هذا العلم وعدم معرفة بغايته وأهدافه.

وليس العلويُّ في تقسيمه مقاصِدَ البلاغة قسمين(ديني) و(عام) بدعًا من القوم، بل هو تقرير وتقعيد لعناية البلاغيين بهذا المقصد العام، فقد سبقه إلى هذا أبو هلال العسكري الذي أبان عن حاجة الأديب إلى علم البلاغة سواء في مرحلة إنتاج الخطاب أو مرحلة تحليله، ممَّا يؤكد تلك العنايةَ وهذا الاهتمامَ، فنراه يقول:"لأنَّه إذا لم يفرِّق- أي الكاتب- بين كلامٍ جيّدٍ، وآخرَ رديءٍ؛ ولفظٍ حسنٍ، وآخرَ قبيحٍ؛ وشعرٍ نادرٍ، وآخرَ باردٍ، بَانَ جَهْلُه، وظهرَ نقصُه، وهو أيضًا إذا أراد أن يصنعَ قصيدةً، أو ينشئ رسالةً- وقد فاته هذا العلم- مزجَ الصّفوَ بالكدرِ، وخلطَ الغررَ بالعررِ، واستعمل الوحشيَّ العكرَ؛ فجعل نفسَه مهزأةً للجاهل، وعبرةً للعاقل... وإذا أراد –أيضًا- تصنيفَ كلامٍ منثورٍ، أو تأليفَ شعرٍ منظومٍ، وتخطّى هذا العلمَ ساء اختيارُه له، وقبحتْ آثارُه فيه؛ فأخذ الرديءَ المرذولَ، وترك الجيدَ المقبولَ، فدلّ على قصور فهمِه، وتأخّر معرفتِه وعلمِه، وقد قيل: اختيار الرجل قطعةٌ من عقله؛ كما أنّ شعره قطعةٌ من علمه"[١].

وفي منتصف القرن العشرين زاحم علمُ النصِّ البلاغةَ العربيَّةَ في العناية بالخطاب – إنتاجًا وتحليًلا- وسجَّل في ذلك حضورًا ملحوظًا، فَعُنِيَ بوضع

١ــ كتاب الصناعتين – تأليف أبي هلال الحسن بن عبد الله سهل العسكري- تحقيق:الدكتور مفيد قميحة- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.ص ١٠، ١١.

المعايير الدقيقة لتصنيف النصوص، وعناصر تماسكها واتساقها، والعوامل المؤثرة فيها من حيث الناحية اللغوية وغير اللغوية، والكشف عن إدراك العلاقات بينها... ويكمن وجهُ المفارقة أنَّ علمَ النصِّ في دراسته للنصوص تجاوز إطارَ البحثِ في صحة الإسناد، واستيفاء المكونات، والنظرة الجزئية المتمركزة حول الجملةأو ما يسمى (وحدة البيت)على ما سيأتي بيانه.

المبحث الثاني: لسانيات النص

أمَّا عن لسانيَّات النصِ أو "علمِ النصّ" أو "علمِ اللغةِ النصيّ" فهو علمٌ معرفيٌّ جديد ظهرت ملامحُه في منتصف القرن العشرين، تميَّزَ هذا العلمُ بالتداخل المعرفيّ بين العلوم، بعضُها لغوي كالأدب والبلاغة والنحو والصرف والعروض، وبعضُها غيرُ لغوي، كعلم النفس والاجتماع والفلسفة والمنطق والتاريخ والإنسان(الإنثربولوجي)[١].

ونقتصر في دراستنا على مصطلح "لسانيَّات النصّ" دون "علمِ النصّ" أو "علم اللغة النصي"؛ لأنَّه أبرُّ باللغة وأقربُ في الدلالة على المقصود؛ حيث يهتم بدراسة النصِ باعتباره الوحدةَ اللغويةَ الكبرى، والبحثِ في عناصر ترابطه وتماسكه وأنماطه ودور المشاركين في النصِ (المرسل والمتلقي)؛ولذا يُعدُّ حلقةً من حلقات التطور الممنهج في دراسة اللغة، وطريقةً جديدةً من طرائق التعامل مع الظاهرة اللغوية.... ويقوم هذا المنهج على دراسة العلاقات الداخليَّة والخارجيَّة للنصِ، حيث تُعدُّ دراسةُ العلاقات النصيّة بين الجمل هي جوهر علم النص؛ وذلك بتجاوز إطار الجملة في التحليل إلى فضاء النص، والعمل على كشف المحتوى الكليّ للنصِ، وبيان أوجه التفاعل الدخلي للنص بعيدًا عن النظرة الجزئية المتمركزة حول الجملة، ولا يعني ذلك

١ـ ينظر في ذلك "الاتساق النصي في التراث العربي" تأليف أ. نعيمة سعدية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة محمد خيضر – بسكرة– الجزائر– مجلة كلية الآداب – العدد الخامس– ٢٠٠٩، وينظر كذلك "في اللسانيات ونحو النص " تأليف دكتور / إبراهيم خليل – جامعة الإسكندرية.وينظر السبك في العربية المعاصرة بين المنطوق والمتكوب–تأليف/ محمد سالم أبو عفرة– مكتبة الآداب– القاهرة– الطبعة الأولى– ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

تجاهل النظر إلى الجملة، كيف وهي المكون والوحدة الصغرى للنصّ؟! وإنَّما دراسة هذه الجملة من خلال ربطها بسياقها وعلاقاتها بأخواتها من الجمل الأخرى.

ولما كان الحكمُ على الشيء فرعًا عن تصوره اقتضت الدراسةُ التعريفَ به وإبراز الوجوه والفروق التي امتاز به عن البلاغة العربية.

مفهوم النص في المعاجم العربية

مادة (ن–ص– ص) في المعاجم العربية، قد تطلق ويراد بها معنى "الرفع، أو الوضوح والظهور، أو التحريك، أو الاستقصاء وبلوغ أقصى الشيء ومنتهاه"[١].

وفي عُرف الأصوليين يُطلق النصُّ ويراد به عندهم: اللفظُ المحكمُ أو الظاهرُ، أو ما لا يقبل التأويل[٢]، وكلها أوصاف للنصِّ القرآنيِّ تدور معانيها حول الدلالة القطعية مقابلة للنصِّ المتشابه.

١ـ لسان العرب لابن منظور– دار إحياء التراث العربي– بيروت – لبنان– الطبعة الثالثة – ١٤١٩هـ/ .١٩٩٩م– مادة(ن.ص.ص)، المجلد١٤، ص١٦٢.

٢ـ مبادئ الوصول إلى علم الأصول– للعلامة الحلي أبي منصور جمال الدين الحسن بن يوسف–تحقيق:عبدالحسين البقال، ط٣، الإعلام الإسلامي– ١٤٠٤، ص٦٥ بتصرف.

مفهوم النص في المعاجم الغربية

أمَّا النصُّ"في المعجم الفرنسي(texte) فهو مأخوذ من مادة (textus) اللاتينية التي تعني النسيج،...كما تعني منذ العصر الإمبراطوري ترابطَ حكايةٍ أو نصٍّ ...والذي نلاحظه في المعنى اللغوي لمادة(texte) أنَّها تدلُّ دلالةً صريحةً على التماسك والترابط والتلاحم بين أجزاء النصِّ وذلك من خلال معنى كلمة"النسيج" التي تشير إلى الانسجام والتضامِّ والتماسك بين مكونات الشيء المنسوج ماديًّا، كما تشير معنويًّا -أيضًا- إلى علاقات الترابط والتماسك من خلال حبك أجزاء الحكاية.

وهكذا نرى "أنّ كلمةَ " نصٍّ" في التعريف الفرنسي أقربُ في الدلالة على مفهوم التماسك النصي؛ فهي تدلُّ على الترابط بين أجزاء الحكاية، كما أنّ كلمة النسيج- المقابل المعجمي لمادة نص- في أبسط معانيها تدلُّ على الانسجام والتماسك والترابط والتناسق بين خيوط المنسوج؛ ذلك المنسوج الذي يُشكِّلُ قيمةً فنيةً ترتفع جمالياتها كلما ازداد تماسك خيوطها"[١].

وبالوقوف مع المعنى اللغويِّ في الأصل اللاتيني لكلمة نصٍّ وهو: النسج [٢] والإحكام والاتساق يتضح لنا وجه التمايز بين البلاغة العربية واللسانيات النصيَّة، حيث ترتب على اختلاف الأصل المعجمي اختلافٌ في تناول ومعالجة العمل الأدبي، وهي معالجة سجلت فيه اللسانيات النصيَّة

١- ينظر "نحو لسانيات نصية عربية" للدكتور/ رشيد عمران – شبكة التواصل الاجتماعي- تاريخ الدخول ٢٠١٦/٨/٢٦.

٢ـ نسيج النص- تأليف: الأزهر الزناد- طبعة المركزالثقافي العربي- بيروت،١٩٩٣م- ص١٢.

حضورًا ملحوظًا في النظر إلى النصّ على أنه وحدة واحدة، وما تستلزمه تلك المعالجة من تجاوز النظرة الضيقة المتمثلة في البيت الواحد في الإبداع الشعري أو الجملة في التأليف النثري للوصول إلى بيان المحتوى الكليّ للنصّ، والكشف عن أوجه التفاعل الداخلي.

أمَّا عن الدلالة الاصطلاحيَّة لدى علماء النصّ فهي قريبة من الدلالة المعجمية، من حيث التماسك والترابط، ولعلَّ من أهمِّ هذه التعريفات الاصطلاحية الأكثر شيوعًا لدى علماء النصّ تعريفَ (دي بوجراند) الذي يرى أنّ النصَّ عبارة عن" حدثٌ تواصلي يلزَم من كونه نصًّا أنْ تتوافر له سبعة معايير مجتمعة، وهذه المعايير هي:

١-السبكُ (الاتِّساق، أو التضام أو الربط) (cohesion)، ٢- الحبكُ (الانسجام أو الالتحام، أو التقارن) (coherence) ٣- القصدُ (Intentionality) ٤- المقاميةُ، أو الموقفيةُ (Situationality)٥- الإعلاميةُ (Informativity) ٦- المقبوليةُ (Acceptability) ٧- والتناصُّ (Interuality).

وهذه المعاييرُ السبعةُ لا بدَّ من توافرها مجتمعةً في أيِّ نصٍّ لكي يتسم بالنصِّية، وإذا فُقِد أحدها في النصِّ خرج عن حدود النصِّية، الذي استقرَّ عليه علماءُ النصِّ مؤخرًا[1].

---

[1]- ينظر في ذلك: الاتساق النصي في التراث العربي- تأليف دكتورة/ نعيمة سعدية – مجلة الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة محمد خيضر – بسكرة – الجزائر- العدد الخامس – ٢٠٠، وينظر كذلك: التماسك النصي بين التراث والغرب- تأليف/ تارا فرهاد شاكر- جامعة صلاح الدين بأربيل- كلية اللغات، وينظر كذلك:"نحو ==

وكما أنَّ دلالة النصِّ على معاني النسج والإحكام والاتساق لا وجود لها في المعاجم العربية، فكذلك لا وجود لمفهومه الاصطلاحي أيضًا- الذي حدَّده دي بوجراند- في الدراسات البلاغيَّة والنقديَّة القديمة، فهو من المصطلحات الوافدة إلينا من الغرب كـ" الأسلوب" و"الخطاب" تمامًا، بل لربما كانت بعضُ المصطلحات اللغوية الأخرى أكثر حضورًا منه، سواء في ذلك ما دلَّ على أجناسه؛ كالشعر، والنثر، والخطابة، أو ما اقترب منه وضعًا واستعمالاً كمصطلح (الخطاب) و(القول) و(الحديث) و (اللفظ) و(الرسالة)[١].

ومن هنا نظرتْ اللسانيَّات النصيَّة إلى "وحدة البيت" نظرةً تختلف عن البلاغة العربية، ففي الوقت الذي أثنى فيه البلاغيون والنقاد على البيت الذي يستقلُّ بمعناه دون عجزه، وجعلوه من الأبيات الغُرِّ المقدَّمة في الجودة والصنعة على حدِّ تعبير " ثعلب" في كتابه(قواعد الشعر)، بينما الأبيات التي لايكتمل معناها إلَّا مع غيرها تكون أدنى منزلةً وأقلَّ جودةً وأبعدها عن عمود البلاغة، نجد الدراسات اللسانيَّة تُعلي من شأن الأبيات المعيبة في التراث البلاغي بدعوى التماسك والترابط، وتذم الأبياتَ المستقلةَ بمعناها بدعوى التفتت والتشتت والنظرة الجزئية، وفي الوقت الذي فضَّل فيه النقاد

==

لسانيات نصية عربية" للدكتور/ رشيد عمران – شبكة التواصل الاجتماعي- تاريخ الدخول ٢٠١٦/٨/٢٦. وينظر كذلك"في اللسانيات ونحو النص" تأليف دكتور/ إبراهيم خليل – جامعة الإسكندرية-

١- ينظر في ذلك "المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب"- تأليف دكتور/ نعمان بوقرة – عالم الكتب الحديث- الأردن- ط الأولى- ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٩م، ص٢٢ بتصرف.

والبلاغيون الشاعرَ الذي يأتي بالمعنى في البيت الواحد على الشاعر الذي يأتي به في البيتين بدعوى الإيجاز والاختصار، نجد اللسانيَّات النصيَّة تُعلي من شأن الشاعر الذي يجعل من القصيدة كلها معنى واحدًا تدور حوله الأبياتُ، حتى تصبح القصيدة كلاً لا يستغني عن جميع أجزائه.

وإنْ كنتُ أرى أنَّ الدعوة إلى تجاوزِ الجملةِ والبيتِ الشعريِّ في عمليةِ التحليلِ التي نادى بها علماءُ النصِّ في ستينيات القرن العشرين، قد سُبقتْ بمحاولاتٍ جادةٍ في ثلاثينيات القرن العشرين، حيث دعا الشيخ أمين الخولي إلى مجاوزة البحث البلاغي المستوى الذي وقف عنده(مستوى الجملة) إلى مستوى ما وراء الجملة في الفقرة والنصّ، وقد تأكدتْ قيمة هذه الدعوة مع ظهور اتّجاه لسانيّ معاصر بدأتْ ملامحُه وإجراءاتُه في التبلور منذ منتصف الستينيات، وهو اتّجاه عرف باللسانيَّات النصيَّة ونحوِ النصِّ، وهو نحوٌ يتخذُ النصَّ كلَّه وحدةً للتحليل"[١].

١- ينظر بلاغة النص من ٢-٨، والبديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية ص٧- ضمن سلسلة دراسات أدبية – الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٩٨.

الفصل الثاني:

وحدة البيت

****

المبحثُ الأوَّلُ: وحدةُ البيتِ في التراث البلاغي.

المبحثُ الثاني: وحدةُ البيتِ في ضوء لسانيَّات النصِّ.

المبحثُ الثالثُ: مآخذ لسانيَّات النصِّ على البلاغةِ العربيَّة.

المبحث الأول: وحدة البيت في التراث البلاغي

عُنِيَ الشعراءُ العربُ باستقلالِ أجزاءِ الأبياتِ واعتدالِها وإحكامِ معانيها وترابطها في رثائهم ووصفهم ونسيبهم وغزلهم ومدحهم وهجائهم وجدِّهم وهزلهم وحِلِّهِمُ وترحالهم وحربهم وسلمهم ووعْدِهم ووعيدهم ... وسائر الأغراض والمعاني التي عبروا بها عمَّا يستكنُّ في خلجات أنفسهم وضمائرهم، وهو ما يمكن أن نسميه البدايات الأولى لوحدة البيت الشعري في التراث الأدبي والبلاغي.

ولعلَّ ما كان من تفضيل بعض الشعراء على بعض ما يؤكد تلك العناية وذاك الاهتمام، ومن ذلك ما ورد من تفضيل ربيعة بن حِذار الأسديّ لشعر عبدة بن الطبيب على الزّبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، والمخبّل السعدي، لا لشيء سوى الإحكام والانسجام والترابط في المعنى، وذلك قي قوله:... وأمَّا أنت يا عبدة فإنّ شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر... وفي رواية أخرى أنَّه اجتمع الزّبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، وعبدة بن الطبيب، والمخبّل التميميون في موضع، فتناشدوا أشعارهم. فقال لهم عبدة: والله لو أنّ قومًا طاروا من جودة الشعر لطرتم، فإمَّا أن تخبروني عن أشعاركم، وإمَّا أن أخبركم. قالوا: أخبرنا. قال: فإنِّي أبدأ بنفسي. أمَّا شعري، فمثل سقاء وكيع– وهو الشديد يصطنعه الرجل فلا يسرب عليه، أي لا يقطر– وغيره من الأسقية أوسع منه[١].

١- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء– المؤلف: أبو عبيد الله بن محمد بن عمران بن موسى المرزباني – ص ٩١، ٩٢. – الجزء الأول.

غير أنَّ هذا الإحكام والترابط – من وجهة نظر لسانيَّات النصِّ– كان في محيط البيت الواحد، دون القصيدة بأكملها.

وليس هذا بمستغرب في الشعر الغنائي؛ فعادةً ما تكون الأغراض والمعاني متعددةً متنوعةً بتنوع الأحوال والمقاصد والغايات، وتختلف باختلاف المشاعر والميول والاتجاهات، وعادةً ما تكون البدايات أميل إلى المعرفة المحددة الدقيقة في معالجة النصوص الأدبية ووضع الأحكام النقدية واستيفاء الحدود والأقسام، وهذا ما كان من النقاد والأدباء والبلاغيين، وهم يبحثون أنواع الأبيات الشعرية وقربها أو بعدها من القافية.

وقد ارتبطتْ(وحدةُ البيت) في التراث البلاغي بمصطلح "التضمين" بمفهومه العروضي، وقد مرَّ هذا المصطلح بمراحلَ مختلفة، وكان أوَّلُها ما ورد في البيان والتبيين للجاحظ أثناء حديثه عن استقلال شطر البيت بنفسه وعدم احتياجه لغيره من أجزاء البيت(١).

ومن هنا ظهر عندهم أمدحُ بيتٍ، وأهجى بيتٍ، بل وصل الأمر إلى نصف البيت كما صورته عبارة الجاحظ"أيُّ نصفُ بيتِ شعرٍ أحكمُ وأوجزُ؟"(٢)، بل وصل الأمر إلى ربع البيت في أحايين أخرى، كما صوره

١- البيان والتبيين ج ص١١١ طبعة دار الكتب العلمية المجلد الأول – الطبعة الثالثة- تحقيق: موفق شهاب الدين، أما التضمين بمفهومه النحوي والأدبي فلا علاقة له فيما نحن بصدده، حيث لا تعلق لهما بالبيت الشعري وعلاقته بسوابقه ولواحقه، والمراد بالتضمين في باب النحو هو تضمن فعل معنى فعل آخر... وفي الأدب الاقتباس، بخلاف التضمين بمعناه العروضي.

٢- البيان والتبيين- الجزء الأول- ص١١٠.

نصُّ الحاتمي حين زعم " أنَّ حمادًا الراوية سُئل: بأيِّ شيء فُضِّل النابغةُ؟ فقال: إنَّ النابغة إن تمثلتَ ببيت من شعره اكتفيتَ به، مثل قوله:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب

بل لو تمثلتَ بنصفِ بيتٍ من شعره اكتفيت به، وهو قوله:

ليس وراء اللهِ للمرءِ مذهبُ

بل لو تمثلت بربع بيت من شعره اكتفيت به، وهو قوله: أيُّ الرجالِ المهذبُ"[1].

ويفهم من ذلك أنَّ التعلُّقَ والتعانق والترابط – في البلاغة العربيَّة– كان في حدود شطري البيت، فإن استقل كلُّ شطرٍ بنفسه فهو بيت مطلق، وإن تعلق كلٌّ منهما بالآخر؛ بحيث لا يفهم معنى الشطرِ الأولِ إلَّا مع الثاني فهو بيت مُضمَّن، وهو ليس معيبًا في عرف الجاحظ حيث لم ينصّ على ذلك صراحةً ولم يشرْ إلى ذلك ضمنيًّا.

ولم تقفْ"وحدةُ البيت" في التراث البلاغي عند استقلال شطري البيت بعضهما عن بعض، بل تطور الأمر إلى جَعْلِ البيتِ وحدةً منغلقةً لا يجوز له الانفتاح على الذي يليه، كما صوره مفهوم "التضمين" عند ثعلب والمرزباني وابن وهب وأبي هلال والباقلاني وابن رشيق... وغيرهم على ما سيأتي بيانه بالتفصيل، ولذا رأوا البيتَ الذي يتعلَّقُ صدرُه بعجزه، ولا يتم معناه إلَّا مع آخر كلمة في البيت معيبًا، وذلك تبعًا لتصور النقاد ورؤيتهم

١ – العمدة في محاسن الشعر وآدابه– المؤلف: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ)– المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد–الناشر: دار الجيل–الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١م، ص ٢٨٠-٢٨٦.

عن "التضمين" حيث مرَّ مفهوم "التضمين"في التراث الأدبي والبلاغي بمرحلة ثانية؛ حين عدُّوا البيتَ المشتملَ عليه من الأبيات المعيبة، ونصُّوا على ذلك صراحة، ففي القرن الثالث الهجري يطالعنا أبو العباس المعروف بثعلب(٢٩١هـ) بكتابه "قواعد الشعر" الذي عني فيه بذكر القواعد التي يجب على الشاعر الالتزامُ بها حتَّى لا يقع فريسة للعيوب المخلة بالشعر، وعدَّ منها البيتَ الذي لا يظهر معناه إلَّا مع عجزه في عِدادِ الأبياتِ البعيدة عن البلاغة، وسمَّاها الأبياتَ المُرَجَّلةَ؛ إشارةً إلى ترهلها وانصرامها وتفككها، بينما الأبياتُ التي تستقل أجزاؤها هي من البلاغة على مراتب؛ بحسب قُرب المعنى من القافية أوبُعده، فكلَّما استقل المعنى قَبْلَ وُرود القافية كان أبلغَ، لذا تنوعتْ الأبياتُ عنده إلى الأبياتِ الغرِّ، والأبياتِ المُحَجَّلة، والأبيات الموضّحة، والأبيات المُرَجَّلة، وكلُّها بليغةٌ-على تفاوت مراتبها- ما عدا النوع المُرَجَّل الذي لا يكون تمام معناه إلا مع عجزه، ومن ثمَّ فالأبياتُ عنده بهذا المقياس أربعة، وهي على حد تعبيره" **الأبيات الغُرُّ**: واحدها أغرُّ، وهو ما نَجَمَ من صدر البيت بتمام معناه، دون عجزه، وكان لو طُرِح آخره لأغنى أوَّلُه بوضوح دلالته...لأنَّ سبيلَ المتكلمِ الإفهامُ، وبغيةَ المُكَلَّمِ الاستفهامُ، فأخفُّ الكلام على الناطق مئونةً، وأسهله على السامع محملاً، ما فُهِمَ عن ابتدائه مرادُ قائله، وأبان قليلُه، ووضح دليله؛ فقد وصفتْ العربُ الإيجازَ فقرظتهُ، وذكرتْ الاختصارَ ففضَّلتهُ، فقالوا: لمحةٌ دالةٌ،لا تخطِئُ ولا تبطِئُ، ووَحْيٌ صرَّح عن ضميرٍ، وأوْمَأَ فأغنى. وهذه الطبقة من الاختيار، والنوع من الأشعار، كتشبيه الخنساء ومجنون ليلى.

قالت الخنساء:

وإنَّ صخرًا لتأتمُّ الهُداةُ به ... كأنه علمٌ في رأسهِ نار

...الأبيات المُحَجَّلة: ما نُتِجَ قافية البيت عن عروضه، وأبانَ عجزُه بغيةَ قائلِه، وكان كتحجيل الخيل، والنورِ يعقب الليل...قال امرؤ القيس:

من ذكر ليلى وأينَ ليلَى ... وخيرُ مارُمْتُ لا ينالُ

...**الأبيات الموضحة:** وهي ما استقلت أجزاؤها، وتعاضدت وصولها، وكثرت فقرُها، واعتدلت فصولها ... ومن ذلك قول قول امرئ القيس:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معًا ... كجلمودِ صخرٍ حطهُ السيلُ من عَلِ

وقول الأعشى:

طويلُ العماد رفيعُ الْوسا ... دِ يحمي المُضافَ ويعطي الفقيرا

...**الأبيات المرجلة:** التي يكملُ معنى كلِّ بيتٍ منها بتمامِه، ولا ينفصلُ الكلامُ منه ببعضٍ يحسن الوقوفُ عليه غير قافيته، فهو أبعدُها من عمود البلاغة، وأذمُّها عند أهل الرواية؛ إذ كان فهمُ الابتداء مقرونًا بآخره، وصدرُه منوطًا بعجزه، فلو طرحت قافيةُ البيت وجبتْ استحالتُه، ونسب إلى التخليط قائلُه؛ كما قال الطائي:

عَدْلاً شبيهًا بالجنونِ كأنما ... قرأتْ به الوَرْهَاءُ شطرَ كتابِ

وقال امرؤ القيس:

إذا المرءُ لم يخزَنْ عليه لسانَهُ ... فليسَ على شيء سواه بخَزَّانِ

وقال النابغة:

هذا الثناءُ فإنْ تسمَعْ لقائلِه ... فما عرضتَ أبيتَ اللعنَ بالصفَدِ"[(١)]

١- قواعد الشعر– ص ٦٦- ٨٤ بتصرف.

ثـمَّ دخـلَ مصطلحُ"التضـمين" مرحلتـه الثالثـة، حيـث تجـاوز مفهـومُ "التضمين" علاقةَ البيت بعضِه ببعض إلى علاقةِ البيت بالبيت الذي يليه، ومن هنا جرى التفاضل بين الشعراء على أساس وحدة البيت، وترسَّخَ هذا المقياسُ الفنيُّ في التراث الأدبي والبلاغي حتَّى تنافس الشعراء في كون البيت وحدةً مغلقةً غيرَ محتاج للذي يليه، وتسابقوا في حشد المعاني في البيت الواحد، فالبيت الذي يجمعُ معنيين أفضلُ من البيت الذي يجمع معنى واحدًا، والشاعرُ الذي يأتي بالمعنى الذي يريده في بيت واحد أشعر من الشاعر الذي يأتي به في بيتين، وهذا ما صرَّح به ابن وهب قائلاً:"واعلم أنَّ الشاعر إذا أتى بالمعنى الذي يريده، أو المعنيين في بيتٍ واحدٍ؛ كان في ذلك أشعرَ منه إذا أتى بذلك في بيتين، وكذلك إذا أتى شاعران بذلك، فالذي يجمع المعنيين في بيتٍ أشعرُ من الذي يجمعهما في بيتين، ولذلك فُضِّلَ قولُ امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطبًا ويابسًا ... لدى وكرها العناب والحشف البالي

على قوله:

كأن عيون الوحش حول خبائنا ... وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب

لأنَّه جمع في البيت الأول وصف شيئين لشيئين، وإنَّما وصف في هذا شيئًا بشيء"[١].

١- البرهان في وجوه البيان – المؤلف: أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، المحقق: د. حفني محمد شرف– الناشر: مكتبة الشباب (القاهرة) – مطبعة الرسالة – عام النشر: ١٣٨٩ هـ – ١٩٦٩ م، ص١٤٦– الجزء الأول. وقد نشر هذا الكتاب من قبل باسم (نقد النثر) لقدامة بن جعفر.

واستقرَّ هذا المقياسُ الفنيُّ- الذي يؤسس للعزلة بين الأبيات- في بيئة النقاد والبلاغيين، ففي نهاية القرن الرابع يرى المرزباني في الموشح أنَّ تَعَلُّقَ البيت بالبيت الذي يليه من عيوب الشعر أيضًا، **وسمَّاه المبتور**، قال:"وهو أن يطول المعنى عن أن يحتمل العروض تمامَه في بيت واحد، فيقطعه بالقافية، ويتمّمه في البيت الثاني؛ مثل ذلك قول عروة بن الورد:

فلو كاليوم كان عليَّ أمري ... ومن لك بالتدبّر في الأمور

فهذا البيت ليس قائمًا بنفسه في المعنى، ولكنه أتى في البيت الثاني بتمامه، فقال:

إذا لملكت عصمة أمّ وهب ... على ما كان من حسك الصّدور(١)

إلى أن جاء أبو هلال العسكري معلقًا على قول حكيم الهند في بيان حقِّ المعنى: "واعلم أنّ حقَّ المعنى أن يكون الاسم له طبقًا، وتلك الحال له وفقًا، ولا يكون الاسم فاضلاً، ولا مقصّرًا، ولا مشتركًا، ولا مضمّنًا؛.... قال أبو هلال في تعريف التضمين: "ولا مضمّنًا: التضمين: أن يكون الفصل الأوّل مفتقرًا إلى الفصل الثاني، والبيت الأوَّل محتاجًا إلى الأخير، كقول الشاعر:

كأنَّ القلب ليلة قيل يُغدى ... بليلى العامريّةِ أو يُراح

قطاةٌ غرّها شركٌ فباتت ... تجاذبه وقد علق الجناحُ

١- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء- المؤلف: أبو عبيد الله بن محمد بن عمران بن موسى المرزباني، ص ١٠٨، ١١٠- الجزء الأول.

فلم يتمّ المعنى في البيت الأوَّل حتى أتمّه في البيت الثاني، وهو قبيح.(١)

وهذا النصُّ هو ما اعتمد عليه المحدثون في وصف البلاغة العربية بالنظرة الجزئية التي تعنى بـ"وحدة البيت" و"بلاغة الجملة"، وفي الحقيقة أنَّ هذا التصور لا يمثله أبو هلال العسكري بمفرده، بل مسبوق بمرحلتين كما سبق بيانه؛ مرحلةِ **تعلق شطري البيت بعضهما ببعض** على يد الجاحظ دون التصريح بالقبح، ومرحلة **تعلق شطري البيت بعضهما ببعض** على يد ثعلب والتصريح بالقبح، ثم المرحلة التي نصَّ فيها ابن وهب والمرزباني **على تعلق البيت بالذي يليه**، التي وافقهما فيها أبو هلال العسكري.

وعلى الرُّغْم من عناية الأدباء والنقاد في البلاغة العربية بمبدأ التماسك والترابط بين أجزاء القصيدة، المتمثلة في جودة السبك وحسن الرصف والنسق، فإنَّ تلك النظرة الجزئية "وحدة البيت" التي شاعتْ في التراث النقدي، جعلت البلاغة العربية في صورةٍ من يدعو إلى عزل العناصرِ المُكوِّنَةِ للنصِّ، وهو مبدأ يتعارض –تمامًا– مع جوهر الدراسات النصِّيَّة القائمة على علاقات التماسك والترابط والانسجام بين أجزاء العمل الأدبي، ومن النصوص التي ساعدت على إقرار هذه النظرة وتأكيدها – إضافةً إلى ما سبق– ما انتهى إليه الباقلاني من" أنَّ الشاعر المُفْلِقَ يسفّ لفظُه إذا هو

١ـ كتاب الصناعتين– المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)– المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم– الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت– ١٤١٩ هـ، ص١٩ ، ص٣٦. واختلف في نسب هذا البيت؛ فنسبه الأخفش إلى قيس المجنون، وقيل: هو لقيس بن ذريح، وقال أبو تمام: هو لنصيب.

سرد قصةً أو عرض حادثةً[1]؛ أي إنَّ الشاعر تضعف قدرتُه وموهبته الفنية إذا أخذ في سرد قصة أو عرض حكاية؛ لما ينتج عن ذلك من تعلق الأبيات بعضها ببعض واحتياج كلٍّ منها للآخر.

وكان ممَّا سجَّلته اللسانيَّات النصّيَّة – أيضًا– من مآخذَ على البلاغة العربية حرصُ الشعراء أن تكون أبيات قصائدهم أشبهَ بالحكم والأمثال؛ سعيًا إلى الذيوع والانتشار، وقد حكى الحاتمي أشياء تعجَّب منها ابن رشيق حين زعم الحاتمي"أنَّ حمادًا الراوية سُئل: بأيِّ شيءٍ فُضِّلَ النابغةُ؟ فقال: إنَّ النابغة إن تمثلتَ ببيت من شعره اكتفيت به، مثل قوله:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب

بل لو تمثلتَ بنصف بيت من شعره اكتفيتَ به، وهو قوله:"ليس وراء الله للمرءِ مذهب"، بل لو تمثلتَ بربع بيتٍ من شعره اكتفيتَ به، وهو قوله:"أي الرجال المهذب؟"، ولا أعرفُ كيف يجعل حمادٌ هذا ربع بيت وفيه زيادة سببين وهما أربعة أحرف؟ إلا أن يريد التقريب... وقال عبد الله بن المعتز:

والعيش هر، والموت مر ... مستكره، والمنى ضلال

والحرص ذل، والبخل فقد ... وآفة النائل المطال

١– ينظرإعجاز القرآنلأبي بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني– الناشر : دار المعارف – القاهرة – تحقيق : السيد أحمد صقر– ص ١٢٧.

ففي البيت الأوَّل ثلاثة أمثال في أحدها احتياج، وفي البيت الثاني ثلاثة أمثال لا احتياج فيها على حذو ما أتى به ضابئ، ولم أر بيتًا فيه أربعة أمثال كل واحد منها قائم بنفسه إلا قليلاً، أنشد الأصمعي:

فالهم فضل، وطول العيش منقطع، ... والرزق آتٍ، وروح الله منتظر

وقال أبو الطيب وحكم عليه الوزن أيضًا:

والمرء يأمل، والحياة شهية، ... والشيب أوقر، والشبيبة أنزق

فأتى بمثلين في كل قسيم، وصنعت أنا:

كل إلى أجلٍ، والدهر ذو دول ... والحرص مخيبة، والرزق مقسوم

وأقلُّ من ذلك ما كان فيه خمسة أمثال، ولا أعرف منه في حفظي إلا بيتًاواحدًا للقزاز السناط في بسط قصيدة مدح بها الأمير تميم بن المعز معد، وهو قوله:

خاطر تفد، وارتد تجد، واكرم تسد ... وانقد تقد، واصغر تعد الأكبرا

وأما ما فيه ستة فإني صنعت:

خذ العفو، وأب الضيم، واجتنب الأذى ... وأغض تسد، وارفق تنل، واسخ تحمد

... وهذه الأشياء في الشعر إنما هي نبذ تستحسن، ونكت تستظرف، مع القلة، وفي الندرة، فأما إذا كثرت فهي دالة على الكلفة"(١).

١العمدة في محاسن الشعر وآدابه- المؤلف: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ)- المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد-الناشر: دار الجيل- الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، ص ٢٨٠-٢٨٦.

وابن رشيق هنا لا يعبر عن رأي غيره من النقاد والبلاغيين، وإنما يعبر عن رأيه، ويرى من يفعل غير ذلك مقصرًا، حيث صرح في موضع آخر:"ومن الناس من يستحسن الشعر مبنيًّا بعضه على بعض، وأنا أستحسن أن يكون كلُّ بيت قائمًا بنفسه لا يحتاج إلى ما قبله ولا إلى ما بعده، وما سوى ذلك فهو عندي تقصير، إلا في مواضعَ معروفة، مثل الحكايات وما شاكلها؛ فإنَّ بناءاللفظ على اللفظ أجودُ هنالك من جهة السرد"(١).

هكذا نظر الأدباء والبلاغيون إلى تعلُّقِ البيت بغيره، واحتياجه في تمام معناه إلى ما بعده، وهو ما عُرف لديهم بـ" التضمين"،وهو من عيوب القافية المُخلة بجودة العمل الأدبي عندهم؛ لما ينتج عنه من ترهل البيت وعدم استقلاله بمعناه، وهو ما أثار حفيظة اللسانيين النصِّيين الذين رأوا في ذلك دعوةً لتماسك البيت ووحدته دون القصيدة، وبلاغةً تسعى إلى استيفاء الأجزاء والمكونات دون المحتوى الكلي، واهتمامًا بالمعنى الجزئي على حساب المعنى الكلي، وربما لا يخفى على أحد ما وسمت به البلاغة العربية من جراء عنايتها بالبيت الواحد، من كونها بلاغة الجملة تارة، وبلاغة الشاهد والمثال تارة أخرى، وبلاغة الشكل دون المضمون ثالثةً، وأنَّها غيرُ قادرة على تحليل النص بأكمله رابعةً، وأنَّه لا توجد دراسة نصِّيَّة في التراث البلاغي بأكمله باستثناء ما قام به حازم القرطاجني...وغير ذلك مما ستعرضه الدراسة بالتفصيل في المبحث الثالث من هذا الفصل بعد طرح وجهة نظرهم في المبحث الآتي حول وحدة البيت وكيف تصورتها اللسانيات النصية والأسباب التي دعتهم لإطلاق هذا الحكم.

١- العمدة ص ٢٦١، ٢٦٢.

المبحث الثاني : وحدة البيت في ضوء لسانيات النص

سبقتْ الإشارة – في الفصل الأوَّل- إلى المعايير النصِّيَّة التي وضعها(دي بوجراند)،وقد حظي منهاعنصرُ التماسكِ والاتساقِ والترابطِ بين أجزاء ومكونات العمل الأدبي باهتمام بالغ من قبل اللسانيين، ممَّا أدى إلى ذيوع هذا التعريف وانتشاره، فهو لم يهمل أحدَ العناصر المُكَوِّنَة للنصِّ سواء أكان ملفوظًا أم مكتوبًا، فقد راعى هذا التعريفُ عناصرَ التماسك الخاصة بالنصِّ وذلك في المعيارين الأوِّل والثاني، وهما ما يعرفان بـ(السبك) ويكون في الألفاظ، و(الحبك) ويكون في المعاني، كما راعى في المعيار الثالث (القصد) مرسل النص، بحيث يكون قاصدًا لما يبثه من رسائلَ في نصه، وأمَّا المعيار الرابع(المقامية أو الموقفية) فقد راعى فيه المقام والحال، وأمَّا المعيار الخامس(الإعلامية) فيعني الجدة والتنوُّع الذي تُوصَف به المعلومات في بعض المواقف" كما قال دي بوجراند[١]؛أي يجب أن يقدم النص ما يثير شعور المتلقي ويجذب انتباهه، وكلما كان المحتوى جديدًا جيدًا زادت درجته الإعلامية، والعكس، وأمَّا المعيار السادس (المقبولية) فقد راعى فيه (المتلقي)، وهو أن تكون الرسالة مقبولةً لدى المتلقي، وأما المعيار السابع (التناص) فقد راعى فيه العوامل المؤثرة في النصّ.

١- ينظر: النص والخطاب والإجراء – تأليف: روبرت دي بوجراند- ص ٢٤٩.

ومن هنا يتضح أنَّ المدخل السليم للتحليل النصِّيّ هو "التحليل المَبْنِيُّ على رؤية شاملة تتوافر فيها كلُّ عناصر النصِّيَّة من متكلمٍ ومخاطبٍ وسياقٍ وعناصر الربط اللغوي ووضعها تحت مجهر التحليل النصِّي"[١].

وإذا كان مفهوم"السبك" لا تختلفُ دلالتُه في العربية عن معناه في اللسانيَّات النصِّيَّة، وهي الترابط والتلاحم كما جاء عن ابن منظور[٢]، كما لا تختلفُ دلالةُ "الحبك" في المعاجم العربية عن معناه في اللسانيَّات النصِّيَّة التي تدور حول الإحكام والإتقان كما جاء عن ابن منظور[٣]، ممَّا يعني أنَّ مصطلح (التماسك النصي) مشتركٌ بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، غير أنَّ البلاغة العربية عنيت بـ "التماسك والترابط" في محيط البيت الشعري، كما صورته نظرتهم للتضمين- الذي يعدونه عيبًا من عيوب القافية-في حين عنيت اللسانيَّات النصِّيَّة بالتماسك على مستوى النصِّ بأكمله.

ومن ثمَّ تعددتْ وسائلُ الربط في اللسانيَّات النصِّيَّة متجاوزةً مبحثي الفصل والوصل وحروف العطف- في البلاغة العربية- إلى عناصر أخرى، منها:

العنصر الأوَّل: الإحالة إلى عنصر إشاري متقدِّم، هذا العنصر الإشاري خارج عن بينة النصِّ، وخيرُ من فطن لهذا العنصر من عناصر

١ـ ينظر "نحو لسانيات نصية عربية" للدكتور/ رشيد عمران – شبكة التواصل الاجتماعي- تاريخ الدخول ٢٠١٦/٨/٢٦.

٢ـ ينظر "لسان العرب" مادة(س- ب - ك).

٣ـ ينظر "لسان العرب" مادة(ح- ب- ك).

التماسك في تراثنا العربي هم المفسرون من خلال عنايتهم بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمطلق والمقيد، ثم الأصوليون من خلال عنايتهم بدلالة النص وإشارة النص واقتضاء النص ومضمون النص وفحوى النص وزمان النص ومكانه، ومن النماذج التطبيقية في ذلك ما تنبه إليه الزمخشري من النظرة الكلية للنص القرآني بعيدًا عن استيفاء المكونات، وهي نظرةٌ لم يتمّ استثمارها وتنميتها بالشكل الأمثل، وخاصة في الدراسات التطبيقية، يقول الزمخشري معلقًا على قوله تعالى: (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى* إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى* أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي):والضمائر كلها راجعة إلى موسى، ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت فيه هجنة؛ لما يؤدي إليه من تنافر النظم. فإن قلت: المقذوف في البحر هو التابوت، وكذلك الملقى إلى الساحل. قلت: ما ضرك لو قلت: المقذوف والملقى هو موسى في جوف التابوت، حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن. والقانون الذي وقع عليه التحدّي، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر[١].

١ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل للزمخشري- دار الكتب العلمية – لبنان- الطبعة الأولى- ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م- ص٦١ المجلد الثالث، وينظر كذلك"الإتقان في علوم القرآن" لجلال الدين السيوطي- تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم- مكتبة دار التراث- القاهرة- ٢/ص٢٨٤. وينظر السبك في العربية المعاصرة بين المنطوق والمتكوب-تأليف/ محمد سالم أبو عفرة- مكتبة الآداب- القاهرة- الطبعة الأولى- ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص٩٠، ٩١.

العنصر الثاني:الاستبدال الذي يُعدُّ أحد عناصر السبك بين أجزاء النص الواحد، هو تعويض عنصر بآخر[١]، وقد كثر هذا في كتاب الله كوسيلة من وسائل الربط دون أن يلتفت أحد إليه بالدراسة والتحليل، ومن ذلك قوله تعالى:"قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ"[٢].

التقدير: و"فئة كافرة"، فاستبدل "أخرى" بـ" فئة"، وهو استبدال في الاسم، وقد يكون في الفعل، مثل قوله تعالى: وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ"[٣] حيث استبدل "تخرج" بـ" تدخل"، فأصل الكلام أدخل يدك في جيبك تدخل، وأخرجها تخرج، ويمكن حمله على الاحتباك[٤]، فزاد النصُّ بالاستبدال تماسكًا وترابطًا حتى أننا لم نشعر باللفظ المُسْتَبْدَل.

العنصر الثالث: الحذف: ويقصد بـ"الحذف" في الدراسات النصية إسقاط عنصر من العناصر بشرط ألا يخلَّ بالتماسك اللفظي والدلالي، ومن ثمّ فهو يختلف عن الإضمار، فالمحذوف ليس على نية التقدير، بينما المضمر في النفس على نية التقدير، حتى قيل:"المُقَدَّر كالمذكور".

١- نقلاً عن كتاب"السبك في العربية المعاصرة بين المنطوق والمتكوب" ص ٩٦.

٢- سورة آل عمران الآية رقم ١٣.

٣- سورة النمل الآية رقم ١٢.

٤- الاحتباك أن يجتمع في الاكلام متقابلان يحذف أحدهما لدلالة الآخر عليه، ومن أيضًا قوله تعالى:"وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا" (التوبة ١٠٢) التقدير : خلطوا عملاً صالح بسيئ، وآخر سيئًا بصالح".

ولقد حاول هاليداي ورقية حسن التفريق بين الحذف والاستبدال مفرقين بينهما بأن الحذف استبدال بالصفر، بينما الاستبدال يعتمد على وجود المُسْتَبْدَل منه سابقًا للمُسْتَبْدَل. (١)

العنصر الرابع:الوصل: إلَّا أنَّ مفهوم الوصل في اللسانيات النصية يختلف عن البلاغة العربية؛ حيث اشرطتْ البلاغة العربية أن يكون بالواو خاصة، أما هاليداي ورقية حسن – وهما من أشهر اللسانيين النصيين– فقد قسمَا الوصل إلى أربعة أقسام،وهي:

الوصل الإضافي: ويكون بحروف العطف.

الوصل العكسي: ويكون من خلال العبارات والتراكيب، نحو:(إلَّا أنَّ) (بالرغم من)(على عكس ذلك).

الوصل السببي: ويتمثل في كل ما كان بسبب من الآخر أو نتيجة له، نحو:(لذلك)و(لهذا)(وعليه) و(من ثمّ) و(بالتالي)و(إجابةً على ذلك).

الوصل الزمني: ويتمثل في العبارت الدَّالة على الزمان والمكان، نحو: (من هنا)(في الوقت)(بعد هذا) (قبل هذا).

العنصر الخامس: السبك المعجمي: وقد أولاه اللغويون النصيون اهتمامًا خاصًّا، وميزوا بينه وبين سائر وسائل السبك؛ وذلك لأنَّه يقوم على العلاقة المعجمية الخالصة بعيدًا عن العناصر النحوية، وقد قسّم هؤلاء العلماء السبك المعجمي إلى قسمين رئيسين، هما: التكرار، والمصاحبة المعجمية، ثمّ فصّلوا الحديث عن هذين القسمين، فقسموا التكرار إلى:

١- نقلاً عن السبك في العربية المعاصرة ص١٢١.

التكرار التام.

التكرار الجزئي.

تكرار المعنى واللفظ مختلف: ويشمل الترادف وشبه الترادف.

وأمَّا المصاحبة: فهي كلمتان أو كلمات يُنظر إليها على أنَّها وحدات معجمية مفردة، مستخدمة بحكم العادة في ترابط بعضها مع بعض في لغة ما؛ كما في اللغة الإنجليزية كلمة "أخضر" التي تصاحب "عشب"، وكلمة "حالك" التي تصاحب"ليل"، فكل كلمة في اللغة لها مدى معين في المصاحبة، "ويوسّع هاليداي ورقية حسن مفهوم المصاحبة ليندرج تحته التضاد"[1].

وعندنا في العربية نلحظ المصاحبة في بعض المفردات، ومنها(ليل ونهار) و(ولد وبنت) و(سماء وأرض)، و(أبيض وأسود) و(الإحياء والإماتة) ... ولا شكَّ أن الاقتران المعجمي بين دلالة هذه الكلمات – سواء أكان هذا الاقتران بالتضاد أم بالتناسب– يعدُّ وسيلةً من وسائل التماسك في النصِّ، وهو ما يعرف في العربية بـ" الطباق" أو "مراعاة النظير" التي تعني في أبسط تعريفاتها: الجمع بين الشيء وما يناسبه.

ونخلص من هذا إلى أنَّ عناصر التماسك النصّيّ في اللسانيَّات النصَّيِّة ترجع إلى خمسة عناصر: وهي"المرجعية: وتكون قبلية وبعدية–

١- السبك في العربية المعاصرة ص١٧٦، ١٧٧ بتصرف يسير.

وتشمل الإحالة بالضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة وأسماء الأعلام والأماكن- والإبدال- والحذف – والعطف- والتماسك المعجمي"[١].

وعلى الرغم من وجود تلك الأدوات الرابطة في التراث البلاغي – وخاصة ما سجله الإمام عبد القاهر الجرجاني في حديثه عن التعلق والنظم والتقديم والتأخير والحذف وأدوات القصر والشرط...- فإنَّ القدماء لم يشيروا إليها صراحة، وكأنهم اكتفوا بالإشارة إلى بعضها، مما دفع بعض المحدثين إلى التصريح بأنَّ جوهر الدراسة النصَّيَّة هو اعتمادها على إدراك العلاقات بين المفردات والعبارات قائلاً:"أمَّا علماء النص فإنَّهم – كما رأينا – يولون التماسك عناية قصوى، ويتجاوزون في شرحهم له تلك المرحلة الحدسية، فيذكرون أنه: خاصية دلالية للخطاب؛ تعتمد على فهم كل جملة مكونة للنص في علاقتها بما يفهم من الجمل الأخرى. ويشرحون العوامل التي يعتمد عليها الترابط على المستوى السطحي للنص؛ مما يتمثل في مؤشرات لغوية، مثل علامات العطف والوصل والفصل والترقيم، وكذلك أسماء الإشارة وأدوات التعريف والأسماء الموصولة وأبنية الحال والزمان وأسماء المكان، وغير ذلك من العناصر الرابطة التي يعنى علم اللغة بتحديدها، وتقوم بوظيفة إبراز ترابط العلاقات السببية بين العناصر المكونة للنص في مستواه الخطي المباشر للقول"[٢].

١ـ ينظر كتاب"نحوالنص بين الأصالة والحداثة" تأليف: دكتور/ أحمد محمد عبد الراضي- الناشر. مكتبة الثقافة الدينية- مصر- الطبعة الأولى- ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م، ص١٢٤، ١٢٥ بتصرف.

٢ـ- بلاغة الخطاب وعلم النص- تأليف: صلاح فضل-عالم المعرفة- الكويت- ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م- ص٢٦٣.

المبحث الثالث: مآخذ لسانيات النص على البلاغة العربية.

على الرُّغْم من تعدد الدراسات الحديثة واختلاف مناهجها وأدواتها ومحيطها المعرفي ومساحتها فإنَّ اتِّهام البلاغة العربية بالنظرة الجزئية لم يشغل مساحةً من تفكير النقاد والأدباء المحدثين إلَّا مع ظهور لسانيَّات النصِّ، ذلك العلم الذي يعنى بإدراك العلاقات الداخلية والخارجية المكونة للنص بداية من المرسل ومرورًا بالمتلقي وانتهاءً بالرسالة، وما يحيط ذلك كله من ملابساتٍ اجتماعيةٍ وفكريةٍ وعقديةٍ وسياسيةٍ وفلسفيةٍ توثر بدورها في عمليات الإرسال والتلقي والرسالة.

وكان ممَّا سجَّلته الدراسات اللسانيَّات في منتصف القرن العشرين خلوُّ البلاغة العربية من المعالجة النصِّيَّة، التي تنظر للنصِّ على أنَّه وحدة كبرى يكون التفاعل معه في إطار النشاط الكلي للنصِّ، وليس في إطار الجملةِ وصحةِ الإسنادِ واستيفاءِ المكوناتِ النحويةِ من فعل وفاعل مفعول ومبتدأ وخبر...إلخ أو المكوناتِ البلاغيةِ من مشبهِ ومشبه به وأداةِ تشبيه ووجه شبه...إلخ.

وتظاهرتْ أقوال النصِّيين على وسم البلاغة العربية بالنظرة الجزئية، وأنَّها بلاغة تجعل من البيت الشعري والجملة هدفًا لها، ولا تتجاوز البيتَ إلَّا إلى البيتين ولا الجملةَ إلَّا إلى الجملتين، وربما عُدَّ هذا التجاوز –على الرغم من محدوديته– معيبًا أو بعيدًا عن عمود البلاغة كما سبق بيانه في الحديث عن "التضمين" في التراث البلاغي... حتى انتهى القول فيما بينهم بأنَّها

جهاز معطل، لابدَّ من استبداله بعلم الأسلوبية، أو إضافة بعض التعديلات عليه بالحذف تارةً أو الإضافة تارة أخرى[١].

وممَّا ساعد على إصدار هذا الحكم وتكوين تلك الرؤية عن البلاغة العربية وجودُ بعض النصوص- في البلاغة العربية- التي تدعو إلى وحدة البيت، وعدم تعلقه بما بعده، بل وصل الأمر- عند بعض النقاد والبلاغيين- إلى تفضيل البيت الذي يستقلُّ بمعناه على البيت الذي يحتاج في تمام معناه إلى ما بعده، وتفضيل الشاعر الذي يجمع في بيته معنيين على الذي يأتي بمعنى واحد، على نحو ما ذكره ابن وهب، وأنَّ المعنى كلما كان محصورًا في ربع بيتٍ أو شطر بيتٍ كان أقرب من عمود البلاغة، وكلما احتاج صدره لعجزه كان أبعدَ من عمودها.

وهي نظرةٌ تتعارض – تمامًا- مع النظرة الكلية التي تبناها علمُ النصِّ، وهو اتِّهامٌ واضحٌ في منهجيةعلم البلاغة، يقوم على انحيازها التام إلى الجزءِ على حساب الكل، ومن ثمَّ كان لا بدَّ من تتبُّع هذا النقد في مظانِّه والسياق الوارد فيه، والتعرض له ومناقشته، وعرضه على مائدة الدراسة.

وأوَّلُ من تنبَّه لفكرة المعالجة النصِّيَّة كعلم مَعْنِيٍّ بالخطاب ليس (هارس) أو(فان ديك) أو(دي بوجراند) كما يدَّعي بعض الحداثيين، إذ إنَّ

١- ينظر: الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية – تأليف: أحمد الشايب- ط١١ مكتبة نهضة مصر -٢٠٠٠م ص٣٨، وينظر كذلك البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة- تأليف: سعد مصلوح- مجلس النشر العلمي- الكويت- الطبعة الأولى- ١٩٧٣. ص٧٠ – وينظر في ذلك كتاب الأسلوب لأحمد الشايب ص٣٧، والأسلوب والأسلوبية – تأليف: عبد السلام المسدي-دار الكتب الجديدة- بيروت-الطبعة الأولى- ٢٠٠٦م- ص٤٤.

جهود هؤلاء جاءت متوالية من منتصف القرن العشرين، وإنَّما بدأت هذه الفكرة على يد الشيخ أمين الخولي في كتابيه(فن القول) و(مناهج تجديد في الأدب والتفسير والنحو والبلاغة)، فهو أول من دعا إلى ضرورة مجاوزة البلاغة العربية إطار الجملة إلى النص في الثلاثينيات من القرن ذاته.

وبدلاً من أن يتمَّ استثمار هذه الدعوة التي نادى بها الشيخ أمين الخولي، ويصبح علم النص عربي النشأة أصيل الأَرُومة، ظلتْ تلك الدعوةُ حبيسة الفكر العربي حتى تولَّت رعايتَها الدراساتُ الغربيةُ، وهذا أمرٌ عجبٌ، والأعجبُ منه أنَّ بعض المحدثين عندما أفاقوا أفاقوا على أمر البلاغة العربية، باحثين على ثغرة ينفذون من خلالها لِلنَّيْلِ منها، ناعين عليها تلك النظرة الجزئية التي وقفت عند حدود البيت شعرًا، وحدود الجملة نثرًا، وأنَّها لم تعرف من أدوات الربط غير مبحثي (الفصل والوصل)، مما وقف حجر عثرة في الوصول إلى معالجة نصِّيَّة باستثناء ما قام به حازم القرطاجني من وجهة نظرهم.

وبصرف النظر عن صحة ما قالوا، فإنَّ هناك محاولاتٍ جادةً قامت على أسسٍ نصِّيَّة، لا ترقى الحداثةُ في أوج صورها أن تقدِّم نظائرها، كما هو واضحٌ في شتى الدراسات القرآنية والفقهية والبلاغية والأدبية والنحوية، وتُعدُّ محاولة حازم واحدة منها، وسيأتي الحديث عن ذلك في موطنه، وإنَّما عناية هذا المبحث تتجه لرصد المآخذ التي أخذها المحدثون على البلاغة العربية، "ومنها أن البحوث البلاغية القديمة في علم المعاني كانت تقتصر في جملتها على هذا المستوى من الترابط القائم بين وحدتين من القول فحسب، وذلك عند تحليل مشكلات "الفصل والوصل" لا تكاد تتعدى هذا النطاق الجزئي المحدود، ممَّا جعل جهدها ينصبُّ على المستوى النحوي أو التركيبي

القريب، دون أن يتجاوزه إلى النطاق الدلالي للفقرة الكاملة أو المتتالية النصية، فضلاً عن أنَّه لم يشمل نصًّا تامًّا في البلاغة القديمة، اللهم باستثناء حالة فريدة لم تتكرر ينبغي الإشارة إليها والتنويه بها، وهي التي تجدها عند بلاغيٍ مغربيٍ متأخر هو "حازم القرطاجني" في تحليله لأجزاء القصيدة، وتسميته لكلِّ قسم منها فصلاً. وتمييزه بين المطلع-وهو البيت الأول منها - والمقطع: وهو مكان الوقوف، ولا يهمل الإشارة إلى طريقة وصل الفصول بعضها ببعض، بل يفعل ذلك بأسلوب الشرط؛ إذ يشترط أن يكون معنى كل فصل تابعًا لمعنى سابقه ومنتسبًا إليه في الغرض، ويُسمي ذلك تسمية اصطلاحية "الاطراد في تسويم رؤوس الفصول"، ويمضي في تطبيق هذه التصورات على قصيدة المتنبي:

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب

فيوردها كاملة، محللاً العلاقة بين أجزائها ووحداتها المكونة على هذا الأساس الدلالي الذي لا يقف عند حدود التعالق النحوي بين الجملتين"(١).

وكي يؤكد الدكتور/ صلاح فضل كلامه كان لابدَّ له من دليل - تراثي- يتكئ عليه، ويبرهن به على دعواه، وهو ما وجده في رفض البلاغيين القدامى لفكرة "التضمين" التي تعني الترابط الدلالي واللفظي بين الأبيات، فيقول: "ويكفي لكي ندرك التحول الجذري في مثل هذا الموقف الفريد أن نتذكر ما كان يقوله البلاغيون القدماء عن "التضمين"، وهو-في مصطلحهم-الارتباط الدلالي المباشر أو التعالق النحوي بين الأبيات المختلفة، إذ يعتبرون مثل هذا الارتباط من العيوب التي يجب على الشاعر

١- بلاغة الخطاب وعلم النص ص٢٦٤.

تفاديها، وبهذا فإنَّهم لم يكونوا يقتصرون على تناول الجزئيات دون الاهتمام بالطابع الكلي للنصِّ الشعري، بل إنهم قاموا بدور خطير- ومتناقض في كثير من الأحيان- في تكريس هذه النزعة الجزئية، و"التضمين" - كما يقول أبو هلال العسكري مثلاً- هو أن يكون الفصل الأوَّل مفتقرًا إلى الفصل الثاني، والبيت الأول محتاجًا إلى الأخير، كقول الشاعر:

كأنّ القلب ليلة قيل يُغدى ☆ بليلى العامريّة أو يراح

قطاةٌ غرّها شرك فباتت ☆ تجاذبه وقد علق الجناح

ويعلق على ذلك بقوله: "فلم يتم المعنى في البيت الأول حتى أتمَّه في البيت الثاني، وهذا قبيح". ومن الواضح أنَّ الصورة الشيقة في هذه الأبيات الغزلية العذبة لم تشفع للشاعر عند البلاغي المعياري الصارم الذي يرى في البيت وحدةً نحويةً لا ينبغي أن تظلَّ مفتوحة بأيِّ شكل على البيت المجاور لها. على أن العسكري لم يكن شاذًّا في هذا الموقف. بل هو يعبر- ربما بشكلٍ فجٍّ مباشر-عن هذا النزوع الجزئي اللفظي للبلاغة العربية، المتجذر في التربة الثقافية والجمالية القديمة؛ حيث كان يعتبر البيت الشعري هو الوحدة الأساسية المكتملة، والقافية بابها الموصد، على أن تتساوى الأبيات في نهاية المطاف، لكن لكل بيت كينونته وأسراره، وهو مستقل بذاته، وقابل - فحسب - لحسن الجوار مع غيره، لكنه لا يكاد يكون معه أسرة متمازجة، ومن هنا فإنَّ كثيرًا من الأشكال البلاغية - إن لم تكن كلها تقريبًا - تنبثق عن هذه البنية المحددة، فمعظم ظواهر البديع-من طباق وجناس ورد للعجز على الصدر وغيرها- إنما هي استثمار جمالي لهذه الوحدة المنغلقة نحويًّا ببابها الموصد. أي إنَّه كان لابدَّ من الاكتفاء الذاتي لكل

بيت، وعلـى جميـع التنويعـات الموسـيقية والدلاليـة أن تحـدث داخـل حـدود البيت، كي لا تتسرب أسراره إلى الخارج"[١].

وعليه؛ فإنَّ هذا التصور الخاص بنمط التفكير لدى البلاغيين والنقاد القدامى –في نظر المحدثين– قد عوَّق البلاغة عن القيام بدورها، وحصرها في إطـار الناحيـة الشكلية، "وأن الحـرص علـى استقلال كـل بيـت بمعنـاه، بحيث لا يتعلـق معنـى كلمـة فيـه أو فهمهـا بكلمـة أخرى فـي بيت سـابق أو لاحق، قد عوَّق الوعي البلاغي والنقدي لدى القدماء بأهمية الشكل الشامل للقصيدة، وفيما نحن بصدده قد عطل التفطن لقيمة العلاقات التبادلة بين عباراتٍ منتثرةٍ بين أبيات القصيدة، وليست محصورةً بالضرورة في بيت واحد"[٢].

ويقول دكتور تمام حسان:"ولهذا السبب بالذات لم تَقُمْ علوم البلاغة في أية مرحلة من مراحل تاريخها الطويل بدور المنهج النقدي الأدبي المتكامل– وإن كانت تؤدي وظيفتها التعليمية– في تقرير القواعد–؛ لأنَّها لم تتخطَّ النقد الشكلي إلى نقد المضمون إلا مع الكثير من القصور على مستوى فهم القدماء أنفسهم لفكرة النقد"[٣].

١.– ينظر بلاغة الخطاب وعلم النص– تأليف: صلاح فضل– الناشر: عالم المعرفة– المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب– الكويت– ١٩٩٢– ص٢٦٣– ٢٦٦ بتصرف.

٢. ينظر الصورة والبناء الشعري– تأليف دكتور: محمد حسن عبد الله– ص١٠

٣. اللغة العربية معناها ومبناها– تأليف: تمام حسان – الهيئة المصرية العامة– القاهرة– ١٩٧٣ ص٣٣٦، ٣٣٧، وينظر كذلك: المعنى بين الأدب والبلاغة ص ١٣٣.

الفصل الثالث:

مآخذ اللسانيات في ميزان النقد

****

المبحث الأول: حقيقة النظرة الجزئية في التراث البلاغي

المبحث الثاني: من ملامح النظرة الكلية في البلاغة العربية

المبحث الأول: حقيقة النظرة الجزئية في البلاغة العربية

إنَّ المتأمل حقيقة تلك النظرة الجزئية التي شاعت في التراث النقدي، يلحظ أنَّ نقادنا لم يدعوا إلى عزل العناصر المكونة للنص، كيف وهم قد حللوا هذه العناصر في ضوء المحتوى الكلي للنص، وانطلاقًا من سياقها النصي؟ كما أنَّهم لم يدوروا في فلك البيت الشعري معزولاً عن بقية القصيدة، ولم يتمركزوا حول الجملة مقطوعة عن سياقها، ويشهد بذلك نتاجهم الأدبي وموهبتهم الفطرية.

إنَّ من المؤكَّد لديَّ أننا أمام تراثٍ بُني أغلبُه على كتاب الله ...فهمًا وإدراكًا وتذوقًا، فهل كان ذلك الفهم من علمائنا في ضوء النظرة الجزئية أم في إطار النظرة الكلية؟!

ليس من المعقول أن يُبنى القرآنُ على وحدة النص في أساليبه وتراكيبه ونظمه وتأليفه، حتى عدَّه المفسرون نصًّا واحدًا ثم يُبنى كلامُ العرب على التجزئة والتفتيت، كيف وهم المخاطبون به وإليهم وُجِّه التحدي؟! فهل خاطبهم القرآنُ بتلك النظرةِ الجزئيةِ المتمثلةِ في الكلمة المفردة أو الجملة أو الفقرة أم خاطبهم بنصوصٍ كليةٍ متسقةٍ متناميةٍ متتابعةٍ؟ ثم أليس قد أجمع أصحابُ الإعجاز أنَّ القرآن خاطبهم من جنس ما نبغوا فيه؟!

ثُمَّ ألا يتعارض هذا الاتِّهامُ الفجُّ مع بلاغة العرب التي استوعبتْ النصَّ القرآني تحليًلا وفهمًا وإدراكًا، وكشفتْ عن خصائصه الجمالية، وأبانتْ عن وجوه إعجازه، ودُوِّنَتْ في ذلك مؤلفاتٌ زاخرةٌ، وقلائدُ مضيئةٌ حتى أدركوا ثلاثيةَ العلامةِاللغويةِ (لفظ– معنى– دلالة)، أو كما قال الخطابي: لفظٌ حاملٌ، ومعنى به قائمٌ، ورباطٌ بينهما ناظمٌ، فمن أين تأتي تلك النظرة الجزئية؟ وألا تتعارض تلك النظرةُ الجزئيةُ مع البلاغة العربية التي استوعبتْ

البيانَ النبويَّ الذي يفوق كلَّ كلامٍ بشري، ثُمَّ أقوالَ أساطين العرب شعرًا ونثرًا، وبعد هذا كلِّه يوصفُ نتاجُهم بعدمِ الإحكامِ والاتِّساقِ والانسجامِ ككلام المجانين والأعاجم والمولدين؟!!

ثُمّ ألم يكن في هذه القصائدِ ضمائرُ تعودُ على أصحابِها، وأسماءُ إشاراتٍ للقريب والبعيد، وموصولاتٌ لها جملُ صلةٍ، وأدواتُ عطفٍ واقترانٍ، وإحالةٌ قبليةٌ وبعديةٌ، وداخليةٌ وخارجيةٌ، وأساليبُ شرطٍ، وترتيبٌ خاصٌّ بين أجزاء الجملة، وعلاماتُ إعرابٍ، وفواعلُ ومفعولون وتوابعُ ومتبوعون من نعتٍ وتوكيدٍ وبدلٍ وعطفِ بيانٍ، وإضافةٌ واشتقاقٌ وتناسبٌ واتِّساقٌ وانسجامٌ وغيرُ ذلك مما ينهضُ دليلاً على خِداعِ وتحرشِ دعوى المحدثين بالبلاغة العربية؟!!... وكأنَّ تراثنا العربي(شعرًا ونثرًا) أضحتْ أبياتُه وفقراتُه أولادَ علاتٍ، تفتقدُ اللُّحمةَ وأواصرَ الترابطِ ووشائجَ القربى فيما بينها؟!! وكأنَّ العرب لم تعرف علمَ المناسباتِ، ومراعاةَ النظيرِ، وردَّ الأعجازِ على الصدور، والتقسيمَ واللَّفَّ والنَّشرَ والاحتباكَ وحُسنَ الاتِّساقِ والتعلقَ والنظمَ والمطابقةَ وقياسَ الشبيهِ على الشبيهِ والنظيرِ على النظيرِ، والمصاحبةَ المعجميةَ والحقولَ الدلاليةَ، ومعاجمَ الموضوعاتِ والاشتقاقَ وائتلافَ الألفاظِ والمعاني؟!! ... أم أنَّ هذا التراث الذي بين أيدينا أنتجتْهُ عقولٌ ساذجةٌ وأفكارٌ مشوشةٌ وأمدَّتْهُ روافدُ بدائيةٌ وتجاربُ سطحيةٌ، وصاغتْهُ ألسنةٌ نبطيةٌ خارجيةٌ...حتى يُقال: إنَّ بلاغة العرب تفتقد اللحمة والترابط وأواصر الرحم ووشائج القربى، أو أنَّ أبياتَ قصائدِها في جزرٍ منعزلةٍ وغاباتٍ متشعبةٍ وطرائقَ متفرقةٍ...؟!!!

الحقُّ أنَّ كلَّ ذلك لم يكن ... وأنَّ بلاغتنا العربية اعتمدتْ في أُسُسِها المعرفيةِ نظامًا من العلاقاتِ اللغويةِ وعناصرَ تماسكٍ لفظي ودلالي يشهد

بذلك مباحثُ العطفِ والتوابعِ، والشرطِ، والضمائرِ وأسماءِ الإشارةِ، والأسماءِ الموصولةِ، والإضافةِ وأدواتِ الاقترانِ، ويشهدُ بتفاعلها وتناميها تلك العلاقاتُ التي تربط بينها ،كالمشابهةِ وعلاقةِ الجزءِ والكلِّ والعلةِ والمعلولِ والسببِ والمسببِ والمناسبةِ والمطابقةِ والترتيبِ الوجوديِّ والاحتباكِ ...كما اعتمدتْ نظامًا من العلاقاتِ غيرِ اللغويةِ وسمَّتْه العناصرَ الخارجيةَ أو الاعتباراتِ المناسبةَ أو المقامَ، فكثرتْ في مؤلفاتهم عبارتُ التنزيلِ والعدولِ، وكلها اعتبارتٌ فكريةٌ، وثقافيةٌ، واجتماعيةٌ، ونفسيةٌ، ودينيةٌ.

ومن ثمَّ لنا أن نفتِّش عن مبدأ وحدة البيت، والدافع إليه، ويبدو لي أنَّ ظروف العصر وطبيعة البيئة لم تكن بمعزلٍ عن ذلك، فالبيئة الجاهلية كانت لها أكبر الأثر في شيوع وحدة البيت التي سيطرت على البلاغة العربية، كما كان لبيئة البلاغيين المتأخرين أثرٌ في شيوع البلاغة التعليمية.

وما تطمئنُّ إليه النفس ويشهد بصدقه التراث البلاغي أن وحدة البيت لدى الشعراء والأدباء لم تكن مقصورةً على ما أبدعوه لنا من فنون القول شعرًا ونثرًا، وإنَّما شكلت تلك النظرة ميولهم واتِّجاههم ومعارفهم وثقافتهم ومجتمعهم، فقد كان للحياة الجاهلية خصائصُها وسماتُها وبعدُها الثقافي والاجتماعي والمعرفي والبيئي، مما أدَّى إلى الاهتمام باللمحة الدالة والعبارة الموجزة،وسيطرة الملاحظ الجزئية في النظر إلى الواقع، ثم أثرها في عموم البحث اللغوي، ومنها مباحث البلاغة(١).

ويمكن أن نرجع هذا الاهتمام إلى عدة أسباب، لعلَّ أبرزها طبيعة البيئة العربية التي منحت العربي، ولاسيما الجاهلي، تذوقًا خاصًّا بالكلمة، وإعجابًا

١- ينظر: البلاغة العربية قراءة أخرى- محمد عبد المطلب- ص١٩.

شديدًا بالعبارة الرصينة والصورة الخاطفة، الموجزة، الموحية، المؤثرة [١]، فضلاً عن شيوع الأمية، وندرة الكتابة؛ لذا اعتمد العرب في جاهليتهم على ذاكرتهم، فنشأت الحاجة إلى الإيجاز؛ لاستيعاب أكبر قدر من منظوم القول ومنثوره، على أن الذاكرة - مهما كانت قوية - قد تضعف، والإنسان كثيرًا ما ينسى، ومن ثم لا يستطيع أن يحفظ كلّ ما يسمع ويروي كلّ ما يقال[٢].

وهذا يفسر لنا سرَّ مقولة العرب: أمدح بيت، وأهجى بيت، وشطر بيت، وربع بيت، وكأنهم أرادوا القصيدة أمثالاً وحكمًا يمكن تناقلها وروايتها، ومن هنا عاب الجاحظ: القصيدة إذا كانت كلها أمثالاً لم تسر، ولم تجرِ مجرى النوادر [٣].

ومن يتأمل تعريفات البلاغيين للبلاغة العربية يدرك أنَّ مقصد الإيجاز شغل حيزًا كبيرًا منها[٤]، والعرب عندما تولي الإيجازَ اهتمامًا، وتعطيه تلك

١- ينظر الخيال في التراث النقدي والبلاغي عند العرب - رسالة ماجستير- تأليف: عقيل عبد الزهرة مبدر الخاقاني- كلية الآداب- جامعة الكوفة- ٢٠٠١، ص١٩.

٢- ينظر علم المعاني، عبد العزيز عتيق، ص١٤٥.

٣- ينظر البيان التبيين، الجزء الأول، ص٢٠٦.

٤ - تنظر هذه التعريفات في البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى ٢٥٥- الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت- تحقيق: موفق شهاب الدين- عام النشر ٢٠٠٩م - ج١ ص ٦٨ وما بعدها، وكتاب الصناعتين - تأليف أبي هلال الحسن بن عبد الله سهل العسكري- تحقيق:الدكتور مفيد قميحة- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م- ص١٩ وما بعدها. وينظر في ذلك أيضًا العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي المتوفي ٤٥٦هـ- تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد- دار الجيل- بيروت- الطبعة الخامسة-١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٢٤١- ٢٤٩ .

المساحة في تعريفاتها للبلاغة، فقد حملوا لنا المعانيَ المستكنة في ضمائرهم المختلجة في نفوسهم، وفي هذه المعاني تكمن أغراضهم ومقاصدهم وأفكارهم وثقافتهم، وما على الدَّرسِ اللساني الحديث إلَّا أن يحسنَ قراءةَ تلك المعاني في مظانِّها وسياقها وبيئتها، والتعرفَ على تلك العقليةِ التي صاغتْ هذه المعرفةَ وأنتجتَها وناقشتَها... وبغير ذلك نكون قد ظلمنا البلاغة العربية ورميناها بما لا يقوم عليه دليلٌ أو يسانده برهانٌ، وهكذا شأن دراسة المعاني، وهكذا يكون الناقد الفطن، وقد ألمح الجاحظ إلى أن المعانيَ تدب الحياة فيها بمجرد التلفظ والتعبير عنها، ومن ذلك قوله: "المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم، والمتخلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة... وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها. وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجليها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهرًا، والغائب شاهدًا، والبعيد قريبًا"[١].

واللَّفظ – كما يقول الرازي– يدلُّ على المعنى الذهني لا الخارجي، وللألفاظ دلالاتٌ على ما في الأذهان لا على ما في الأعيان، ولهذا السبب يقال: الألفاظ تدلُّ على المعاني؛ لأنَّ المعاني هي التي عناها العاني، وهي أمور ذهنيَّة[٢].

ونقطة الانطلاق لفهم كلام البلاغيين والأدباء حول (وحدة البيت) تكمن في مجاوزة تلك الصورة الشكلية الخارجية اللَّفظيَّة لوحدة البيت، إلى ما

---

[١]- البيان والتبيين ص٦٠

[٢]- ينظر تفسير الرازي المسمى بـ "التفسير الكبير، أو مفاتح الغيب"، الناشر– دار الفكر– لبنان– الطبعة الأولى– ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م جـ١ ص٣١.

وراءها من معانٍ ذهنيةٍ، وأعني بالوراء هنا ذلك الفضاء الرحب من الدلالات الكامنة وراء هذه المفاهيم من أفكار العرب وثقافاتهم وقيمهم وميولهم واتِّجاهاتهم وعاداتهم؛ وإذا أردت أن تعرف عقلية امرئ، وفكره، وثقافته، وميوله، واتِّجاهه، فاعمد إلى ما قصد من معانٍ ودلالات، فكل تأليف لابدَّ أن يسبقه تفكير، أو كما قال الأخطل:

إنَّ الكلام لفي الفؤاد وإنَّما ☆☆☆ جعل اللسان على الفؤاد دليلا[1]

وقل مثلَ ذلك في كل النصوص التي يوحي ظاهرها بالنظرة الجزئية، وثِقْ أنَّها لا تسعى إلى وحدة البيت وعزله عن النص، وإنَّما تهدف إلى نقل فكرة موجزة أو رسالة محددة، يسهل تناقلها وروايتها، ومن المعايير المستقرة في النقد أنَّ دراسة الفنون الأدبية من خلال تدرج المعني أصدق من دراستها من خلال الأغراض والطبقات؛ لأنَّ المعانيَ صورةٌ وجدانيةٌ لصاحب التجربة الإنسانية التي تنشأ في بيئةٍ هي صادقة في بيئتها، في حين أنَّها لو قِيستْ في بيئة أخرى لكانت مختلفة، ومن هنا فإنَّ نظرية المعنى في البلاغة العربية تنادي بدراسة الأدب العربي وفنونه وتراكيبه وأمثلته وشواهده من خلال نموِّ فكرة المعنى؛ حتى تستقيم الأحكام وتصح النتائج"[2].

ويبدو أنَّ الذين اتهموا البلاغة العربية بالنظرة الجزئية مستشهدين بنصِّ أبي هلال العسكري قد قنعوا بما فيه من دلالةٍ إجماليةٍ ومعنى ظاهرٍ، وبنوا

---

[1] ـ هذا البيت منسوب للأخطل، وشَغَلَ حيزًا كبيرًا بين علماء الكلام فيما يتعلق بصفة الكلام، ومع ذلك لم أعثر عليه في ديوانه بتحقيق قباوة ولا تحقيق مهدي محمد ناصر الدين.

[2]. المعنى بين الأدب والبلاغة ص ٤٥.

عليه حكمًا إجماليًّا دون تفصيل وتدقيق، وهذا مخالفٌ لأسس النقد المنهجي الذي يدعو إلى رصد ظاهرة "وحدة البيت" وتعليلها في بيئتها وثقافتها ثم الحكم عليها في ضوء معطيات هذه البيئة وتلك الثقافة، وهذا منهجٌ أصيلٌ من مناهج العلم والبحث؛ " ولذا كان من الخطأ الذي يلحق الناقد أن يعامل الأعمال الأدبية جميعًا بطريق واحد، وهذا الخطأ لأنَّ الأعمال الأدبية تتنوع في معانيها بتنوع المواقف، ولذا كان من المفيد أن ينظر الناقد إلى الأثر الأدبي حسب المعاني في كل فنٍّ أدبي، فلا يجوز للناقد أن يدرس الأنواع جميعًا بطريقة واحدة، يعامل قصيدة تقليدية معاملة قصيدة حديثة... فممارسة النقد بطريقةٍ واحدةٍ دليل على شيء غير سليم في نقد الناقد، وعلى عدم وضوح المنهج لديه"(١).

ولا ترخص في التحذير من هؤلاء الذين لا يقبلون إلَّا الدلالات الإجمالية، ولا يفصِّلون ولا يدقِّقون القول في شأن "وحدة البيت" ووجه العناية والاهتمام بها، كما أنه لا ترخص في تفصيلها وتدقيقها، وهذا منهجٌ أصيلٌ من مناهج العلم والبحث في كل أبواب العلم.

وهذا الخطأ هو ما وقع فيه مُدَّعو الحداثة؛ حيث عاملوا الشعر الغنائي – ومنه شعر العرب باستثناء بعض التجارب القصصية –(٢) معاملة الشعر

١- ينظر المعنى بين الأدب والبلاغة ص٦٦، وينظر كذلك دراسات في النقد الأدبي، محمد مصايف، ص٧ – الشركة الوطنية- الجزائر- ١٩٨١.

٢.- يقول شوقي ضيف:" على أننا لا نعدم الشعر القصصي في الشعر الجاهلي: على أن هذه الحركة قد أتاحت لشعرهم ضربًا من الروح القصصية، لا نراه ماثلاً في وصفهم للحيوان الوحشي فحسب؛ بل نراه أيضًا في وصف الصعاليك لمغامراتهم على ==

القصصيّ، مُتَنَاسين أنَّ شعر العرب يعتمد نظام القافية التي هي بمثابة

==

نحو ما تعرض علينا ذلك تائية الشنفرى التي أنشدها المفضل الضبي والتي يستهلها بقوله:

لَا أُمُّ عَمْرو أَجمعتْ فاستقلَّتِ ... وما ودَّعتْ جيرانَها إذ تولَّتِ

فإنه يقص علينا بعد غزلها الطريف قصة غزوة له مع بعض رفاقه من الصعاليك، وهو لا يسردها في إجمال؛ بل يسرد تفاصيلها، إذ يذكر أنهم أعدوا العدة للغزو والسلب، يحملون قسيَّهم الحمر، وقد خرجوا من واديين: مِشْعل والجَبا راجلين، وقد حمل زادهم تأبط شرًّا الصعلوك المشهور، وكان يقتر عليهم في الطعام خشية أن تطول بهم الغزوة فيهلكوا جوعًا. ويصف لنا الشنفرى جعبة السهام التي كانت معهم، وكيف أنهم كانوا يحملون حسامًا صارمًا؛ بل سيوفًا قاطعة كأنها قطع الماء في الغدير لمعانًا؛ بل كأنها أذناب البقر الصغير تحركه، وقد نهلت وعلت من دماء محرم ساق هديه إلى الكعبة؛ فقتلوه دون غايته وأخذوا ما معه، كما قتلوا بعض من كانوا ساق هديه إلى الكعبة، فقتلوه دون غايته وأخذوا ما معه، وعلت من دماء محرم ساق هديه إلى الكعبة، فقتلوه دون غايته وأخذوا ما معه، كما قتلوا بعض من كانوا يرافقونه، ومن لم يُقْتَل أخذوه أسيرًا، وينهي القصة مفتخرًا بشجاعته وأنه لا يرهب الموت.

ويكثر الصعاليك من قَصِّ مثل هذه المغامرة، ويلقانا في حماسياتهم كثيرٌ من وصف معاركهم، وقد يحاولون سردها، وهو سرد تتمشى فيه الروح القصصية على نحو ما تمثل ذلك معلقة عمرو بن كلثوم وقصائد بشر بن أبي خازم في المفضليات؛ إذ يتحدث فيها حديثًا مفصلاً عن يوم النِّسار والجفار، فالقصص يتخلل شعرهم، وقد أفردوا له في مطوَّلاتهم قطعة وصف الحيوان الوحشي. ونراه ماثلاً في غزلهم على نحو ما مرَّ بنا في غزلية المنخل اليشكري؛ وإنما تمثلنا بقطعة منها، وهو ماثل في غزل المرقّش الأصغر مما رواه صاحب المفضليات. فإذا قلنا بعد ذلك كله: إن معانيهم كان يسودها في بعض جوانبها ضرب من الروح القصصية لم نكن مبالغين، وهي روح لم تتسع عندهم، فقد أضعفتها حركتهم وميلهم إلى السرعة والإيجاز. وبذلك لم يظهر عندهم ضرب من ضروب الشعر القصصي؛ فقد ظل شعرهم غنائيًّا ذاتيًّا، يتغنى فيه الشاعر بأهوائه وعواطفه، غير محاول صُنْعَ قصة، يجمع لها الأشخاص والمقومات القصصية، ويرتبها ترتيبًا دقيقًا، فإن شيئًا من ذلك لم يخطر بباله؛ إذ كان مشغولاً بنفسه، لا يهمه إلا أن يتغنى بها وبمشاعره. ينظر: الشعر الجاهلي، شوقي ضيف، ص١٢٤، ١٢٥.

استراحةٍ يأوي إليها الشاعر، ويلتقط فيها أنفاسه، وجهازٍ إعلاميٍّ يضمن للبيت ذيوعه وانتشاره، ووسيلةٍ معينة على التغني، "وقد أحكم العرب هذه الصياغة الموسيقية... فقد كان الشاعر يتقيد في قصيدته بالنغمة الأولى، وما زالوا يصفون في نغم القصيدة، حتى استوى استواءً كاملاً، سواء من حيث اتِّحاد النغم أو اتِّحاد القوافي وحركاتها، وبرعوا في تجزئة الأوزان حتى يودعوا شعرهم كل ما يمكن من عذوبة وحلاوة موسيقية"[١].

وتناسى هؤلاء المحدثون أنَّ العرب في فنها الأدبيِّ لم تعرف الشعر القصصي الذي يمتاز بالخيال الممتد، حتى ربَّما "امتدت قصائده إلى آلاف الأبيات، وتتوالى فيه حلقات من الأحداث ... وهي في حقيقتها قصة؛ إلَّا أنَّها كتبتْ شعرًا، فالتسلسل القصصي فيها دقيق، والانتقال بين أجزائها منطقي محكم، وهي قصة تفسح للخيال مجالاً واسعًا، ولذلك كانت تكثر فيها الأساطير والأمور الخارقة، ... ولم تعرف الجاهلية هذا الضرب من الشعر القصصي، وهي كذلك لم تعرف الضرب الثاني من الشعر التعليمي... وكذلك لم يعرف الجاهليون الشعر التمثيلي الذي يعتمد على مسرح وعلى حركة وعمل معقد وحوار طويل بين الأشخاص، تتخلله مشاهد ومناظر مختلفة، فهذه الضروب الثلاثة من الشعر لم يعرفها الجاهليون، فشعرهم منظومات قصيرة قلما تجاوزت مائة بيت، وهو شعر ذاتي يمثل صاحبه وأهواءه[٢].

١- ينظر: الشعر الجاهلي، شوقي ضيف، ص١٢٦، ١٢٧.

٢- ينظر: الشعر الجاهلي، شوقي ضيف، ص١٨٩، ١٩٠بتصرف.

ويفهم من هذا أنَّ مبدأ "وحدة البيت" الذي التزمه البلاغيون لم يؤدِّ إلى التفريط في التماسك والترابط بين أجزاء العمل الأدبي، وإنَّما كان هذا المبدأ الذي التزموه استجابةً لطبيعة البيئة الجاهلية التي تعتمد التنقل والترحال، "وهي حركة توحي بعدم الثبات والاستقرار، وبالتالي تعني عدم التوقف عند شيء، وإطالة النظر فيه هي التي جعلت معانيهم سريعة، أو على الأقل كانت من أهم البواعث على سرعتها؛ فالشاعر لا يقف طويلاً عند المعنى الذي يلم به؛ بل لا يكاد يمسه حتى يتركه إلى معنى آخر؛ فحياته لا تثبت ولا تستقر، وهو كذلك في معانيه لا يثبت ولا يستقر؛ بل ينتقل من معنى إلى معنى في خفة وسرعة شديدة، ومن ثم غلب عليه الإيجاز، فهو لا يعرف الإطناب ولا ما يتصل به من هدوء وسكون، ولعل هذا هو الذي جعل البيت في قصائدهم وحدة معنوية قائمة بنفسها، وتتألف القصيدة من طائفة الأبيات أو البيوت المستقلة التي يكتفي فيها كل بيت غالبًا بنفسه؛ غير متوقف على ما يسبقه ولا على ما يلحقه إلا نادرًا" (١).

ولا يعنى استقلال البيت الانعزال عن محتوى القصيدة، بحيث يصبح غايةً في ذاته، بل هو بداية لغاية كبرى هي النص، ولا غايات بدون بدايات، وعند الإبداع أو النظرة الجمالية يصبح هذا الجزء ضمن كلٍّ لا ينفك عنه، وتصبح القصيدة وحدة واحدة.

وأمَّا ما كان من نصِّ أبي هلال العسكري الذي اتخذه المحدثون ذريعةً لِلنَّيْلِ من البلاغة العربية فقد تتبعته الدراسة في مظانِّه، وتبيَّن أنّ مصطلح (التضمين) بمفهومه العروضي يعدُّ أحد عيوب القافية العروضية، وهذا

١- ينظر الشعر الجاهلي، شوقي ضيف، ص١٢٤، ١٢٥.

المعنى هو ما وجدناه عند ثعلب والمبرد وابن قتيبة والمرزباني وابن الأثير وابن رشيق...على نحوما سبق بيانه، غير أنَّهم أثنوا عليه في بعض المواضع، وهذا ما لم يذكره المحدثون، وإنما تعمدوا ذكر نصوص القبح والمعابة، بل الأعجب أنَّ البيت الذي استشهد به الدكتور/ صلاح فضل للنيل من البلاغة العربية مَدَحَهُ المبرِّدُ وأثنى عليه، وهو بيت مجنون بني عامر، وقال في شأنه:" لم يبلغ أحد قبله هذا المقدار" واستملح ما كان على شاكلته، كما استحسن المرزباني أبيات امرئ القيس المضمنة، واستحسن ابن الأثير "التضمين" ولم يره عيبًا، وكيف يكون معيبًا وهو واقع في كلام الله؟ واستحسن ابن رشيق هذا النوع من التعلق والترابط ما دام في قصة أو حكاية، وإليك هذه النصوص تفصيلا:

ولنبدأ بكلام المبرد المشهود له بالرسوخ والإتقان حتى قال عنه ابن جني:إنه جبل من العلم، حيث قضي بأن بيت مجنون بني عامر- البيت الذي اتخذه المحدثون شاهدًا على النظرة الجزئية – من جيد التشبيهات ومليحها،ولم يكن هناك أفضل منه في المعنى قبله، فيقول: وقد قال الشعراء قبله فلم يبلغوا هذا المقدار"(١).

ويبدو أنَّ الصورة التشبيهية قد نالت من حس المبرد ووجدانه ما جعله يمتدحها رغم معرفته بطبيعة العرب في تشبيهاتها وأنه تميل إلى الإيجاز

١- الكامل في اللغة والأدب- المؤلف: محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: ٢٨٥هـ)- المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم- الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة- الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م، الكامل ص ٢٩ الجزء الثالث.

والاختصار، وذمها للتضمين بمفهومه العروضي، وذلك حيث يقول:"والعرب تختصر في التشبيه، وربما أومأت به إيماءً"[1].

بل نراه يتجاوز هذه النظرة العروضية إلى النظرة البلاغية فيستحسن ذلك النوع من التشبيهات، ويسوق في ذلك أمثلةً كلها من الأبيات التي يرتبط بعضها ببعض، أذكر منها ولا أعددها قوله:" ومن التشبيه المليح قوله:

وكأن سلمى إذ تودعنا ... وقد اشرأب الدمع أن يكفا

رشأ تواصين القيان به ... حتى عقدن بأذنه شنفا"[2]

حيث تعلق البيت الأول بالبيت الثاني، ولم يتمّ المعنى إلا به، ولم تكتمل الصورة التشبيهية إلا عنده.

وقال أيضًا: " وقال الحسن بن هانئ في صفة السفينة:

بنيت على قدر ولاءم بينها ... طبقان من قير ومن ألواح

فكأنها والماء ينطح صدرها ... والخيزرانة في يد الملاح

جون من العقبان يبتدر الدجى ... يهوي بصوت واصطفاق جناحي[3]

حيث احتاج البيت الثاني إلى البيت الثالث حتى يتم المعنى، فلم يكتمل التشبيه إلا به.

فهل يعدُّ هذا الثناء من المبرد على تلك التشبيهات كافيًا في الرد على ما رُميتْ به البلاغة العربية من المعالجة الجزئية أم تكون عبارته مقابلةً لعبارة

١- الكامل ص ١١٠ الجزء الثالث.

٢- الكامل ص ١٠٥ الجزء الثالث.

٣- الكامل ص ١٠٦ -الجزء الثالث.

أبي هلال العسكري فيرتفع بهما الاستدلالُ إيجابًا وسلبًا، أم هل يحتاج الأمر إلى التصريح بأنَّ معرفة المحدثين بنظام القصيدة العربية أشبه بمعرفة بائع الثوب دون حائكه، وفرق بين من استخلص خيوط النسج وحاكها وميَّز جيدها من رديئها، فأخذ منها وترك، وألَّف بينها في اتِّساق وانسجام، وعايش نسجها وتفاصيلها حتى ابتدعها على غير نظام – وهو حال العرب في معرفتهم بقصائدهم– وبين بائع الثوب الذي لا يعرف شيئًا عن ثوبه غير صورته النهائية التي بين يديه، بل إنَّ بائع الثوب ممَّا يحمد له أنَّه يروِّج لبضاعته ويُثني عليها، بينما لم يبلغ بعض المحدثين تلك المنزلة، وإلَّا لما كانوا صدى صوتٍ لثقافة تخالف ثقافتنا ولغاتٍ تباين لغتنا وأنظمةٍ لغويةٍ تغاير نظامنا ومناهج أدبية تفارق منهجنا.

وفي السياق ذاته يُثني المرزباني في " الموشح" على أبيات امرئ القيس التي دخلها التضمين في قافيتها قائلاً:" وأبيات امرئ القيس في وصف الليل أبيات اشتمل الإحسان عليها، ولاح الحذق فيها، وبان الطبع بها، فما فيها معاب إلّا من جهة واحدة عند أمراء الكلام والحذّاق بنقد الشعر وتمييزه. ولولا خوفي من ظنّ بعضهم أنّي أغفلت ذلك ما ذكرته، والعيب قوله بعد البيت الذي ذكرته:

فقلت له لمّا تمطّى بصلبه ... وأردف أعجازًا وناء بكلكل

ألا أيّها الليل الطويل ...

فلم يشرح قوله: "فقلت له" ما أراد إلّا في البيت الثاني، فصار مضافًا إليه متعلّقا به؛ وهذاعيب عندهم"(١).

١- الموشح ص٣١،٣٠ بتصرف.

وكأنَّ التضمين ليس بعيب عنده، وإنما ذكره جريًا على عادة الأدباء، كيف وهو يشهد للأبيات التي وقع فيها " التضمين" بغاية الإحسان والحذق ولين الطبع؟! ويؤيد ذلك قوله في سياق آخر معلقًا على نفس الأبيات...قال: وعيب على امرئ القيس قوله:

فقلت له لما تمطّى بصلبه ... وأردف أعجازًا وناء بكلكل

ألا أيّها الليل الطويل ألا انجلي ... بصبح وما الإصباح فيك بأمثل

قال: فانسلخ البيت الأول بوصف الليل من غير أن يذكر ما قال، وجعله متعلقًا بما بعده، وذلك معيب عندهم. (١)

وعلى ذلك فالتضمين نوعان عند المرزباني؛ أحدهما معيب، والآخر: جائز إذا أجاد الشاعر استخدامه، وهذا نصُّ ما قاله:"حدثني علي بن هارون، قال: التضمين أحد عيوب القوافي الخمسة، وليس يكون فيه أقبح من قول النابغة الذبياني:

وهم وردوا الجفار على تميم ... وهم أصحاب يوم عكاظ إني

شهدت لهم مواطن صالحات ... أتينهم بحسن الودّ مني

فأما قول امرئ القيس:

وتعرف فيه من أبيه شمائلا ... ومن خاله ومن يزيد ومن حجر

سماحة ذا وبرّ ذا ووفاء ذا ... ونائل ذا، إذا صحا وإذا سكر

١- الموشح ص٣٠-٣٤ بتصرف.

فليس ذا بمعيب عندهم، وإن كان مضمنًا؛ لأنَّ التضمين لم يحلل قافية البيت الأول، مثل قوله: "إني شهدت لهم". وقد يجوز أن يوقف على البيت الأول من بيتي امرئ القيس؛ وهذا عند نقّاد الشعر يسمى الاقتضاء: أن يكون في الأول اقتضاء للثاني، وفي الثاني افتقار إلى الأول"(١).

بينما يرى ابن الأثير أنَّ التعلق والتعانق بين أبيات القصيدة لا يُعدَّ عيبًا؛ لأنَّه إن كان سبب عيبه أن يعلّق البيت الأوَّل على الثاني فليس ذلك بسبب يوجب عيبًا؛ إذ لا فرقَ بين البيتين من الشعر في تعلق أحدهما بالآخر وبين الفقرتين من الكلام المنثور في تعلق إحداهما بالأخرى؛ لأن الشعر هو: كل لفظ موزون مقفّى دلّ على معنى، والكلام المسجوع هو: كل لفظ مقفى دل على معنى؛ فالفرق بينهما يقع في الوزن لا غير.

والفقر المسجوعة التي يرتبط بعضها ببعض قد وردت في القرآن الكريم في مواضع منه؛ فمن ذلك قوله – عزَّ وجلَّ – في سورة الصافات: (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ)(٢)، فهذه الفقر الثلاث الأخيرة مرتبط بعضها ببعض؛ فلا تفهم كل واحدة منهن إلا بالتي تليها، وهذا كالأبيات الشعرية في ارتباط بعضها ببعض، ولو كان عيبًا لما ورد في كتاب الله – عزَّ وجلَّ – وكذلك ورد قوله– تعالى – في سورة الصافات أيضًا: (فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلاَّ مَنْ هُوَ

١.– الموشح ص٤١.

٢.– سورة الصافات الآيات من ٥١–٥٣.

صَالِ الْجَحِيمِ)[1]، فالآيتان الأوليان لا تفهم إحداهما إلا بالأخرى، وهكذا ورد قوله – عزَّ وجلَّ – في سورة الشعراء:(أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)[2]. فهذه ثلاث آيات لا تفهم الأولى ولا الثانية إلا بالثالثة، ألا ترى أن الأولى والثانية في معرض استفهام يفتقر إلى جواب، والجواب هو في الثالثة....وقد استعملته العرب كثيرًا، وورد في شعر فحول شعرائهم؛ فمن ذلك قول امرئ القيس:

فقلت له لمّا تمطّى بصلبه ... وأردف أعجازًا وناء بكلكل:

ألا أيّها اللّيل الطّويل ألا انجلي ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل"[3]

في حين يرى ابن رشيق: أنَّه كلما كانت اللفظة المتعلقة بالبيت الثاني بعيدةً من القافية كان أسهلَ عيبًا من التضمين...وربما حالت بين بيتي التضمين أبياتٌ كثيرةٌ بقدر ما يتسع الكلام وينبسط الشاعر في المعاني، ولا يضره ذلك إذا أجاد"[4].

وعند التحقيق نجد"التضمين" أمرًا متعلقًا بوحدة البيت من حيث الوزن والقافية، وكلها أمورٌ في صميم التماسك والترابط، ولكنه تماسكٌ وترابطٌ من نوع خاص، تطابق النغم المتمثل في الوزن، وتلاحم أجزاء البيت المتمثل في

١.- سورة الصافات الآيات من ١٦٢-٢٦٤.

٢.- سورة الشعراء الآيات من ٢٠٦-٢٠٨.

٣. المثل السائر- الجزء الثاني- ص ٣٢٣، ٣٢٤.

٤.- الكتاب: العمدة في محاسن الشعر وآدابه- المؤلف: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ)- المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد-الناشر: دار الجيل-الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، ص ٢٨٠-٢٨٦.

القافية، ولو كان التضمين معيبًا على الإطلاق لكان ترابط الجملة بالجملة التي تليها في أمر النثر كذلك، وهذا ما لم يقل به أحد من البلاغيين، بل إنَّهم التزموا مبدأ الوحدة والترابط في النثر ودعوا إلى تعلق الجمل والفقرات بعضها ببعض، ومن ثم رأوا أن النثر مبنيٌّ على الوحدة، دون الشعر الذي يبنى على وحدة البيت لا لشيء سوى مراعاة الوزن والقافية.

ومن هنا فرَّق المرزوقي بين مبنى النثر ومبنى الشعر، وهو اختلافٌ يتعلق فيما نحن بصدده؛ حيث جوز في النثر ما لم يجوزه في الشعر مراعاةً للوزن والقافية، فرأى أن النثر" واضح المنهج، سهل المعنى، متسع الباع، واسع النطاق، تدلّ لوائحه على حقائقه، وظواهره على بواطنه[١]، بخلاف مبنى الشعر، فهو على"العكس من جميع ذلك؛ لأنه مبنيٌّ على أوزان مقدرة، وحدود مقسمة، وقوافٍ يساق ما قبلها إليها مهيأة، وعلى أن يقوم كلّ بيت بنفسه غير مفتقر إلى غيره إلا ما يكون مضمنًا بأخيه، وهو عيب فيه، فلما كان مداه لا يمتدُّ بأكثرَ من عروضه وضربه، وكلاهما قليل، وكان الشاعر يعمل قصيدته بيتًا بيتًا، وكلّ بيت يتقاضاه بالاتِّحاد، وجب أن يكون الفضل في أكثر الأحوال في المعنى[٢]،حتى وصل إلى إقرار حكم عام وهو " كلّ ما يحمد في الترسل ويختار، يذم في الشعر ويرفض.

ويفهم من هذا أن وحدة البيت أساسٌ في القصيدة لكونها أوزانًا مقدرة، وحدودًا مقسمة، وقوافيَ يساق ما قبلها إليها مهيأة، بخلاف النثر الذي لا

١ – ينظر شرح ديوان الحماسة – تأليف أبي علي المرزوقي– تحقيق: غريد الشيخ– الجزء الأول – ص١٧.

٢ – ينظر شرح ديوان الحماسة – تأليف أبي علي المرزوقي– تحقيق غريد الشيخ– الجزء الأول – ص١٦، ما بعدها.

يتجزأ، فهو كلام متسع الباع، واسع النطاق، تدلّ لوائحه على حقائقه، وظواهره على بواطنه، على حد تعبير المرزباني السابق.

ومن هنا ظهر في الشعر ما يُعرف بـ" التصريع " و" الترصيع" و" التوشيح" و" الإرصاد" و" الإيغال" و" التصدير... وغير ذلك مما له تعلقٌ بالوزن والقافية، وليس من غايتنا- ولا غاية اللسانيات النصية الاعتراض على هذين اللونين من المعرفة (الوزن والقافية) وارتباطهما بالفن الشعري، وكما يقول الدكتور بدوي طبانة: "فإن النظرة العلمية تميل إلى تعدد جبهات المعرفة، وتخصيص كل جبهة بلون خاص من ألوانها، ولكن الذي يمكن أن يقال هو: أن هذين العلمين ينظران في الصحة من حيث استقامة النغم في الوزن، ووحدة القافية، وهما لونان من ألوان التناسب والتطابق، فيدخلان فيما نحن فيه من البحث في جمالات المطابقة"[1].

[1]- البيان العربي" دراسة في تطور الفكرة العربية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى" دكتور/ بدوي طبانة- الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية- الطبعة السادسةص٤٢٠، ٤٢١.

المبحث الثاني: من ملامح النظرة الكلية في البلاغة العربية

لعلَّ في تلك الصفحات ما يمدُّ جذور الترابط بين البلاغة العربية وعلم النص، ويكشف عن النظرة الكلية للبلاغة العربية، وما بينها وبين علم النص من تلاقٍ وتقارب؛ حيث تتجه عناية هذا المبحث إلى إثبات عناية البلاغة العربية بالأسس والمعايير النصية ومدى اعتمادهم في ممارساتهم التطبيقية على المعالجة الكلية، ردًّا على دعوى بعض منتسبي الحداثة الذين زعموا أن البلاغة العربية لم تعرف لها سبيلاً إلى النصِّ، وأنَّ أدواتها غير قادرة على كشف العلاقات المتعددة التي يقوم عليها النصُّ، وهو زعمٌ –من وجهة نظري– فيه كثير من المغالطة القائمة على كمال الانقطاع المعرفي بين هؤلاء المحدثين وبين التراث البلاغي.

وعلى الرغم من عناية العرب بوحدة البيت حفاظًا على الإيقاع الموسيقي الناتج عن اعتدال الأجزاء واستيفاء المعاني، فإنَّ النظرة الكلية – التي تدعو إلى تماسك الأبيات بعضها ببعض والتزام معايير الاتِّساق والانسجام في كل عمل فني– ظاهرة بوضوح في معاييرهم النقدية وممارساتهم التطبيقية.

ومن الأسس الفنية التي أقرها التراث البلاغي عند إنتاج الخطاب أوتحليله مفهوم (المطابقة) و(العناصر الخارجية) و(خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر)، وكلها اعتبارات خارجة عن النص إلى زمان النص ومكانه وعلاقة المتكلم بالمخاطب وطبيعة العصر وثقافته وظروفه السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وغير ذلك مما سَمَّتْهُ اللسانيات النصية بالعلاقات الخارجية للنصِّ، وهو ما أشار إليه البلاغيون بمفهوم (المطابقة)؛ ولذا جرتْ عادتُهم قبل أن يوردوا النصَّ أن يذكروا مقدمةًعن الملابسات التي أحاطت به، وهو ما عُرف بمناسبة القصيدة في الشعر، أو الرواية في النثر، أو

أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ والعام والخاص، والمطلق والمقيد في النظم القرآني، وشأن هذه المقدمات أن تكشف غموضًا أو توضح مبهمًا أو تفصل مجمَلاً أو تنبه غافلاً أو تقنع قارئًا؛ لأنَّه إذا اقتنع كانت منه عنايةٌ واهتمامٌ ببناء النصّ، فتحدث بشر بن المعتمر عن الحالة النفسية في صحيفته، وتحدث عبد القاهر عن العناصر الخارجية، وتحدث ابن قتيبة عن ظروف العصر في أدب الكاتب، وهي نصوصٌ متنوعةٌ ومتعددةٌ تحتاج إلى دراسةٍ مستقلةٍ حول العلاقات الخارجية للنصِّ، وإذا هُيِّئَ لي في القابل كانت مني معالجة في مقدمات النص، أو ما تسميه اللسانيات النصِّيَّة(عتبات النص).

أمَّا ما يتصل بسياق دراستنا وهو:عناية العرب بالنظرة الكلية داخل بنية النص فخير ما يمثلها قضية "النظم"، وفيها نجد عالمًا كعبد القاهر الجرجاني لا يكتفي بالعبارات المجملة ولا الأحكام المرسلة السائدة في عصره، نحو قولهم:" كلام له خصوصية... وكيفية مخصوصة... وفيه من الحسن مالا يخفى... وأحسن بيت... وأمدح بيت...إلخ، ومن ثمّ أطال من وصف العلاقات الداخلية والخارجية للنصِّ، وكشف عن أوجه التفاعل والترابط بين أجزائه، وهو بذلك يتفق مع هدف اللسانيات النصّية في العصر الحديث.

وإن شئت أن تجعل "النظم" و"التماسك النصي" شيئًا واحدًا فقد وفَّيْتَ "التماسك" حقه وزيادة، فـ" النظم" عند عبد القاهر لا يقتصر على معنى الترابط والتضام بين أجزاء الجملة الواحدة، بل يتجاوزها إلى إطارٍ أوسع ووحدة كبرى وهي "النصُّ"، ومن ثم نراه يؤكد على معنى النسج والإحكام والصياغة والتحبير والتعلق والضم والتأليف ومعرفة الوجوه والفروق بين الكلم، كما أن النظم عنده لا يقتصر على الترابط الشكلي بين الألفاظ، بل يمتدُّ ليشمل التماسك الدلالي بين معاني تلك الألفاظ، حتى ترى الجزء قائمًا

بالكل، وترى الكل مستدعيًا ومكتنفًا للجزء في نسيج عجيب وفريد تتلاحم فيه الألفاظ بعضها مع بعض، فيتصل الأوَّل بالثاني والثاني بالأوَّل، ويبنى المُتقدِّم على المتأخِّر والمتاخِر على المتقدِّم، فلا أثرَ للألفاظ عند عبد القاهر من حيث هي أصوات مسموعة وحروف متوالية في النطق ما لم تتلاقَ معانيها وتتسق دلالتها، فنراه يقول:"وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى:(وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[١]، فتجلَّى لك منها الإعجاز وبهرك الذي ترى وتسمع أنَّك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلَّا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض،وإن لم يعرض لها الحسن والشرف إلَّا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة، وهكذا إلى أن تستقربها إلى آخرها، وأنَّ الفضلناتج ما بينها وحصل من مجموعها، إن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية، قل (ابلعي) واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها، وكيف بالشك في ذلك، ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أمرت، ثم في أن كان النداء بـ"يا" دون "أي" نحو يا أيتها الأرض، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال: ابلعي الماء، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، ونداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثمَّ أن قيل:(وغيض الماء)، فجاء الفعل على صيغة فعل الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك

---

[١]- سورة هود الآية ٤٥.

وتقريره بقوله تعالى:(قضي الأمر)، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو استوت على الجودي، ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة (قيل) في الخاتمة بـ(قيل) في الفاتحة، أفترى لشيءمن هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقًا باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟[1]

ويتشابه مفهوم "التعلق" في قضية النظم مع مفهوم "التماسك النصّي" عند النصّيين؛ ذلك أن "التعلق" في نظر عبد القاهر هو عماد النظم وقوامه، فلا ترابطَ وتماسكَ بين أجزاء الكلام بدونه، ومن يقرأ عبارات عبد القاهر عن"التعلق" يدرك ما بينهما من علاقةٍ تلازمية، فلا نظم بدون تعلق، كما أنه لا تعلق بدون نظم، يقول عبد القاهر:"واعلم أنَّك إذا رجعت إلى نفسك علمت علمًا لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك"[2].

ويقول في موضع آخر:" معلوم أن ليس "النظم" سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"[3].

وعبد القاهر بهذا الطرح يسعى إلى ترسيخ "البلاغة النصية"، وإن لم يسمها باسمها ويخطو بذلك خطوات واسعة حول تحديد مفهوم "التماسك

[1]. الدلائل صـ ٤٥ – ٤٦.

[2]. الدلائل صـ ٥٥

[3]. الدلائل ص٤–٨.

النصي" يكاد بهذه الخطوات يوضع في مصاف النصّيين الأوائل؛ فهو لا يرى "التماسك النصي" محصورًا في مجموعة من الأدوات الشكلية أو اللفظية؛ كالعطف وأدوات الشرط والاقتران وعلامات الترقيم وأسماء الإشارة ... وغيرها، وإنَّما يرى"التماسك" ضروريًّا– أيضًا – في المعاني والأغراض التي ينشئها المتكلم، وهو ما أطلق عليه النصيون المحدثون "التماسك الدلالي"، بمعنى أن تترابط دلالات الألفاظ وتتفاعل داخليًّا بحيث يسلم بعضها إلى بعض ويجعل بعضها بسبب من بعض، فتصبح متسقة منسجمة.

وفي حديثه عن الفصاحة نجده يتجاوز الكلمة حال إفرادها إلى مفهوم أوسع وأشمل وهو التركيب، ومن ثم توجهت عنايته إلى الحديث عن علاقة الكلمة وترابطها مع أخواتها من ناحية، واتِّساقها وحسن ملاءمتها من ناحية أخرى، فجاء حديثه عن"الفصاحة" نقطة ارتكاز حول مفهوم "التماسك النصي"، فهو لا يتحدث عن فصاحة خارج التأليف، وإنما يتحدث عن فصاحة تحدث بعد التركيب، فالألفاظ من حيث هي حروف وأصوات مسموعة لا تفاضل بينها حتى يعلق بعضها ببعض ويجعل بعضها بسبب من بعض، فنراه يقول:" فقد اتضح إذن اتضاحًا لا يدع للشك مجالاً أنّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ"[١]. ويقول في موضع آخر:" واعلم أنَّك إذا رجعت إلى نفسك علمت علمًا لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكلم ولا

---

[١]ـ دلائل الإعجاز ص٤٦.

ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك"[١].

وإذا خلا المعنى الاصطلاحي لمفهوم النص في التراث البلاغي عن (النسج) فإن قضية النظم قد استدركته وصرحت به، بما يمكن معه أنْ نسميَ " النظمَ " نصًّا، أو أنْ نسميَ " النصَّ " نظمًّا، وتظاهرت عبارات "النسج" و"التحبير" و"الوشي" و"البناء" و"النقش" على تأكيد هذا المعنى، وهي عباراتٌ ترددت كثيرًا في حديث عبد القاهر عن الضَّمِّ والتأليف والنظم، وهي مصطلحات تحمل دلالاتٍ مهمةً في الدراسة النصية، حتى إن من المحدثين من عَرَّفَ النَّصَّ بقوله:"نسيج من الكلمات"[٢].

ومن ثم فهي عباراتٌ تدلُّ على الإحكام والإتقان في الصنعة، حتى إنَّ العربَ كانت تمدح الرجل الحاذق الماهر في صنعته بقولهم: نَسِيجُ وَحْدَهُ، أي لا يضاهيه أحدٌ في صنعته؛ لتفرُّدِه، ومن ثم كثر حديث عبد القاهر عن تشبيه الناظم بالناسج والواشي والنقّاش والبنّاء والصائغ، فنراه يقول:" وإذا كنت تعلم أنهم استعاروا النسج والوشي والنقش والصياغة لنفس ما استعاروا له النظم، وكان لا يشك في أن ذلك كله تشبيه وتمثيل يرجع إلى أمور وأوصاف تتعلق بالمعاني دونالألفاظ، فمن حقك أن تعلم أن سبيل النظم ذلك السبيل"[٣].

---

[١]- دلائل الإعجاز ص٥٥.

[٢]- ينظرنسيج النص- تأليف: الأزهر الزناد- ط-المركزالثقافي العربي- بيروت،١٩٩٣م- ص١٢.

[٣]- الدلائل ص٥٣.

وقوله:" واعلم أنَّ ممَّا هو أصل في أن يدقَّ النظر ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت – أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض ويشتد ارتباط ثانٍ منها بأولَ، وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعًا واحدًا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه هاهنا في حال ما يضع بيساره هناك، نعم وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعها بعد الأولين، وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حدٌّ يحصره وقانونٌ يحيط به فإنه يجيء على وجوه شتى وأنحاء مختلفة"[١]، وقوله:"ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه"[٢].

هذا عن فكرة النص التي اشتملت عليها قضية النظم، أما عناصر التماسك النصي فيها، فالمتأمل في الفصل السابق يجد أن "التماسك النصي" عند المحدثين لا يختلف كثيرًا عن مفهوم "التماسك" عند عبد القاهر الجرجاني، حتى وإن لم يسمه باسمه؛ فحديث عبد القاهرعن النظم والتعلق والفصاحة ومعاني النحو والصياغة والنسيج والتحبير يؤكِّد اهتمامه بالترابط والعلائق بين الكلام.

وقد جاء حديث عبد القاهر عن الترابط بين أجزاء الكلام مفصلاً؛ حيث تطرق فيه للربط بأدوات العطف والحذف والشرط والضمير والتعريف والتقديم والتأخير والتكرار، وهي نفس الأدوات التي نص عليها المحدثون أمثال "فان

---

١ - الدلائل ص٩٣.

٢ - الدلائل ص٢٥٤، وينظر كذلك عناصر التماسك النصي بين نظرية النظم وعلم النص للباحث- مجلة كلية البنات الأزهرية بالعاشر من رمضان- العدد الأول- ص١٣٥ وما بعدها.

دايك" و "رقية حسن" و "هاليداي"؛ ولذا نبه عبد القاهر في باب الفصل والوصل إلى أهمية أدوات العطف وتأثيرها في عمليتي الكتابة والتأليف، فنراه يقول:"واعلم أنَّه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه:"إنَّه خفي غامض،ودقيق صعب، إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى، وأدق وأصعب"[١].

ومن النصوص التنظيرية الدالة على النظرة الكلية في التراث النقدي والبلاغي- بالإضافة إلى ما سبق - ما ذكره ابن أبي الإصبع عن حسن النسق والاتِّساق والانسجام بين أجزاء العمل الأدبي- شعرًا ونثرًا- يقول ابن أبي الإصبع:"وهو أن تأتيَ الكلمات من النثر والأبيات من الشعر متتاليات، متلاحمات تلاحمًا سليمًا مستحسنًا، لا معيبًا مستهجنًا، والمستحسن من ذلك أن يكون كل بيت إذا أفرد قام بنفسه، واستقل معناه بلفظه، وإن ردفه مجاوره صار بمنزلة البيت الواحد، بحيث يعتقد السامع أنهما إذا انفصلا تجزَّأ حسنُهما، ونقص كمالُهما، وتقسَّم معناهما، وهما ليسا كذلك، بل حالهما في كمال الحسن وتمام المعنى مع الانفراد والافتراق كحالهما مع الالتئام والاجتماع" [٢].

١- الدلائل ص٢٣١.

٢- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن- المؤلف: عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري (المتوفى: ٦٥٤هـ)- تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف- الناشر: الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي- ص ٤٢٥ - الجزء الثالث.

ثم يشفع ذلك بممارسة تطبيقية لحسن النسق الذي لا يقلُّ شأنًا عن (مفهوم التماسك) في الدراسات النصية:" ومن شواهد هذا الباب في الكتاب العزيز قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[١]، فأنت ترى إتيان هذه الجمل معطوفًا بعضها على بعض بواو النسق على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة؛ لأنَّه سبحانه بدأ بالأهم، إذ كان المراد إطلاق أهل السفينة من سجنها،ولا يتهيأ ذلك إلا بانحسار الماء عن الأرض، فلذلك بدأ بالأرض، فأمرها بالابتلاع، ثم علم –سبحانه – أن الأرض إذا ابتلعت ما عليها من الماء ولم تقطع مادة الماء تأذى بذلك أهل السفينة عند خروجهم منها، وربما كان ما ينزل من السماء مخالفًا لما تبتلعه الأرض، فلا يحصل الانحسار، فأمر سبحانه السماء بالإقلاع بعد أمره الأرض بالابتلاع، ثم أخبر بغيض الماء عند ما ذهب ما على الأرض، وانقطعت مادة السماء، وذلك يقتضي أن يكون ثالث الجملتين المتقدمتين، ثم قال تعالى: "وقضي الأمر"، أي هلك من قُدّرَ هلاكه، ونجا من قُضيتْ نجاته، وهذا كنه الآية، وحقيقة المعجزة، ولا بدَّ وأن تكون معلومةً لأهل السفينة، ولا يمكن علمهم بها إلَّا بعد خروجهم منها، وخروجهم منها موقوفٌ على ما تقدم، فلذلك اقتضت البلاغة أن تكون هذه الجملة رابعة الجمل، وكذلك استواء السفينة على الجودي، أي استقرارها على المكان الذي استقرت فيه استقرارًا لا حركة معه، لتبقى آثارها آية لمن يأتي بعد أهلها، وذلك يقتضي أن يكون بعد ما ذكرنا، وقوله سبحانه: "وقيل بعدًا للقوم الظالمين"، هذا دعاءٌ أوجبه الاحتراس ممن

---

[١]- سورة هود الآية ٤٥.

يظن أن الهلاك ربما شمل من لا يستحق، فدعا سبحانه على الهالكين، ووصفهم بالظلم احتراسًا من هذا الاحتمال، وذلك يقتضي أن تكون بعد كل ما تقدم، والله أعلم.فانظر إلى حسن هذا النسق، وكيف وقع القول فيه وفق الفعل سواء.ومن شواهد هذا الباب الشعرية قول زهير / طويل:

ومن يعص أطراف الزجاج فإنه ... يطيع العوالي ركبت كل لهذم

فإنه نسق على هذا البيت اثني عشر بيتًا كل بيت معطوف على ما قبله بالواو عطف تلاحم من غير تضمين[1].

ونص ابن أبي الإصبع يؤكد النظرة الكلية في التراث البلاغي من زاويتين:

الأولى: أنَّ التماسك والترابط فيها كان على مستوى النص، وليس على مستوى الجملة والجملتين كما يدعي بعض المنتسبين للحداثة، فالنص القرآني تجاوز الخمس جمل، وكذلك الأبيات التي استشهد بها ابن أبي الأصبع تجاوزت أحد عشر بيتًا، وهذا يؤكد أنَّ نظرة علمائنا الكرام البررة للنص كانت نظرةً كليةً تهدف إلى كشف المحتوى الكلي، وإبراز أوجه التفاعل الداخلي للنص.

الثانية: أن عبارة ابن أبي الإصبع " كل بيت معطوف على ما قبله بالواو عطف تلاحم من غير تضمين" تبرز لنا عنايتهم بالتلاحم والترابط القائِمَينِ على مقصدِ المتكلمِ الحُرِّ؛ طواعية منه بعيدًا عن التماسك المتكلف الذي يقع فيه الأديب مضطرًّا دون قصد، وكأن البلاغة العربية جعلت من

١- تحرير التحبير – ص ٤٢٥ – الجزء الثالث.

مبدأ التماسك والترابط بين أجزاء العمل الأدبي هدفًا أسمى وغايةً عليا على الأديب أن يسعى إليها في شكلها المتكامل، فلا يجور لحساب اللفظ على المعنى، فيقع فريسةً للناحية الشكلية التي تؤدي إلى "وحدة البيت"، ولا يجور للمعنى على حساب اللفظ فيقع فريسة "للتضمين" الذي يخلُّ بالقافية، وإنما عليه أن يوازن بين الترابط اللفظي والدلالي، ولعلَّ هذا ماقصده ابن أبي الإصبع بقوله: "كل بيت معطوف على ما قبله بالواو عطف تلاحم من غير تضمين"(١).

وقد أشار إلى ذلك الجاحظ قائلاً: وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغًا واحدًا، وسبك سبكًا واحدًا؛ فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان".

وهي نظرة سائدة في التراث البلاغي كما صورتها عبارة ابن رشيق:"ومن الناس من يستحسن الشعر مبنيًّا بعضه على بعض...مثل الحكايات وما شاكلها، فإنَّ بناء اللفظ على اللفظ أجود هنالك من جهة السرد"(٢).

والسؤال الذي تطرحه الدراسة: هل تعمَّد بعض المنتسبين إلى الحداثة إخفاء وجهة النظرالأخرى في البلاغة العربية حول "التضمين" و "وحدة البيت" والأبيات التي امتدح النقاد والبلاغيون تعلق البيت بما بعده، وهي

١- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن- المؤلف: عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري (المتوفى: ٦٥٤هـ)- تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف- الناشر: الجمهورية العربية المتحدة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي- ص ٤٢٥ – الجزء الثالث.

٢ـ العمدة – الجزء الأول- ص٢٦١، ٢٦٢.

نصوصٌ صريحة؟ ولماذا صدَّروا لنا فكرة "التضمين" على أنها دعوة إلى وحدة البيت أو انحياز من البلاغة العربية إلى الجملة على حساب النص؟

فليس من المعقول أن يؤكد البلاغيون – غير مرة–على التلاحم والترابط بين أجزاء الكلام كما هو واضحٌ من النصوص السابقة، ثم يناقضوا ذلك بالتركيز على وحدة البيت عند المعالجة التطبيقية، ولا يعقل– كذلك– أن يفيد كلامهم الدعوة إلى النظرة الكلية في موضع التنظير، ولا يفيده في موضع التطبيق، فهذا ممَّا لا يقول به عاقل، وإنَّما دلالة التماسك والترابط وجودة السبك موجودة في تراثنا البلاغي، وكون المحدثين لم يفطنوا إليها ليس مدعاة لنفيها أو تجاهلها.

ومن هذه النصوص التطبيقية ما أورده المبرد في الكامل.والمبرد في الكامل لا يذكر كل التشبيهات، وإنما يذكر بعض ما استحسنته العرب من التشبيه المصيب،على حدِّ قوله:[١]

والعجيب أنه يحكم بالجودة والإصابة والاستحسان على قول مجنون بني عامر الذي استدل به المحدثون على وحدة البيت وبلاغة الجملة، وهو قوله:

كأن القلب ليلة قيل يغدى ... بليلى العامرية أو يراح

قطاة غرها شرك فباتت ... تجاذبه وقد علق الجناح

لها فرخان قد غلقا بوكرٍ ... فعشهما تصفقه الرياح

فلا بالليل نالت ما ترجي ... ولا بالصبح كان لها براح

١- الكامل ص ٢٩ الجزء الثالث.

وقد قال الشعراء قبله فلم يبلغوا هذا المقدار".[١]

ثم يقارن بينه وبين بيت الشيباني للحجاج:

هلا برزت إلى غزالة في الوغى ... بل كان قلبك في جناحي طائر

وينتصر للبيت المُضَمَّن قائلاً: "فهذا يجوز أن يكون في الخفقان وفي الذهاب البتة"[٢].

وهذا القول من المبرد – الذي قال عنه ابن جني: إنه جبل من جبال العلم،– إنما يبطل كل وهم، ويقطع كل هاجس يدور حول الحكم على هذا البيت بأنَّه معيب، ويؤكِّد أنَّ ما كان من حكم أبي هلال العسكري لم يكن إلَّا في إطار الدائرة العروضية التي هي مظهرٌ جماليٌّ يضاف إلى جماليات البيان العربي، وكأنَّ المبردَ بهذا الحكم والنعت بالإصابة يريد منَّا أن نقتدي ببيان العرب وطرائقهم في التعبير، وأن يغرس فينا ذوقًا وطبعًا نتذوق ونطالع به كلام العرب.

وربما هذا ما أحسه الدكتور/ محمد أبوموسى وهو يعرض لمجنون بني عام؛ معللاً سرَّ إعجابه بهذا البيت، وهو ما حواه هذا التشبيه من أحوال وأحداث متعددة تمثلت في قصةٍ زاخرةٍ بالخصوبة والدلالات؛ ولأن كل حدث في المشبه به لابدَّ أن يكون راجعًا لمعنى في المشبه ... ولا شكَّ في أنَّ أبا العباس قرأ ما بعد هذين البيتين، وهو من تمام التشبيه، وهو قوله:

لها فرخان قد غلقا بوكر ... فعشهما تصفقه الرياح

١- الكامل ص ٢٩ الجزء الثالث.

٢- الكامل ص ٢٩ الجزء الثالث.

فلا بالليل نالت ما ترجي ... ولا بالصبح كان لها براح

وهذا هو الذي يجعل المشبه به كأنَّه قصة، ويجعله تشبيهًا ممتدًّا، ويجعل له ثراءً يذهب أكثره بالاختصار والاكتفاء بالبيتين الأول والثاني، وإن كان قوله: "غرها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح" فيه ما يكفي لأنْ يكون أفضل من التشبيهات التي ذكرها أبو العباس في اضطراب القلب؛ لأنَّ القطاة هنا صارت في فم الموت، وهي تجاذب الشرك من غير أمل في النجاة، ودل على افتقاد الأمل بقوله:"وقد علق الجناح"، وهذا يعني أن الشاعر استشعر الفقد والعدم لما قيل:"يغدى بليلى أو يراح، وليس في الصور الأخرى شيء من هذا الإحساس... إلخ"(١).

وختامًا يمكن القول: إنَّ من عادة اللغويين والأدباء كثعلب وابن وهب والمرزباني وأبي هلال وابن رشيق عندما يعالجون قضية ويضعون لها ضوابط أن تميل عقليتهم إلى المعرفة المحددة الدقيقة، واستيفاء الأقسام، وهذا ما كان منهم في بحثهم أنواع الأبيات وتقسيمها إلى درجات... وعليه؛ فإن وحدة البيت، أو ما يُعرف بمصطلح (التضمين) ينبغي أن يُفهم في سياقه، وهو سياقه العروضي، ومن الخطأ البيِّن أن يكون " التضمين" معيارًا حاكمًا يلصق بالبلاغة العربية.

وإنَّما أطلتُ في ذكر كلام العلماء؛ بغيةَ الوقوفِ على حقيقة هذا الاتِّهام الخطير المتعارض مع بلاغة العرب التي استوعبت النص القرآنيَّ تحليلاً وفهمًا وإدراكًا وكشفت عن خصائصه الجمالية وأبانت عن وجوه إعجازه...

١- ينظر المسكوت عنه في التراث البلاغي- تأليف: دكتور محمد أبو موسى- الناشر: مكتبة وهبة- مصر- الطبعة : الأولى- ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م ص٥١- ٥٤ بتصرف.

وتركيزًا على أنَّ مفهوم " الحداثة" لا يعني هدم الثوابت، وإنَّما يعني مدَّ جذور الترابط بين القديم والحديث، وتقليل المسافة المتنازع عليها بين البلاغة العربية وعلم النص، أما فرض القطيعة وهدم الثابت ولعًا وشغفًا في طلب الجديد من غير زاد أو معرفة فهذا مما أفسد الحياة الفكرية،"ولم يفد البيئة الفكرية إلا البلبلة والاضطراب والفوضى التي تختل فيها المقاييس الأصيلة، ومن العسير أن تحتلَّ منزلتها مقاييس أخرى دخيلة لا صلة لها بالأفكار الموروثة، وبهذا تصبح الحياة الفكرية متاهاتٍ لا معالم فيها، ولا منارات تهدي السراة في مهاويها، على أن هذا الجديد لا يحتفظ دائمًا بصفة الجودة كما يزعم دعاته، بل إن أصحابه الأصليين كثيرًا ما يتشككون فيه... ولكننا نتلقف هذه الآراء فنغالي بها، وندل على الذين لم تتح لهم فرصة الوقوف عليها، ونزعم أن التشبث بها هو أساس النهضة لآدابنا وحياتنا، وكأن هذه النهضة لا تقوم إلا على أفكار مستوردة، وآراء مجلوبة فيها من الجيد كما فيها من الرديء، وفيها الصالح والفاسد، وقد يكون هذا بخيره وشره مقبولاً، أما غير المقبول فهو التنكر لتراثنا لغير سببٍ موضوعيٍّ يدعو إلى تلك الحملات المنكرة"(١).

والحمد لله على ما وفَّق وأعان، وأسأله سبحانه القبول والسداد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

صالح أحمد عبد الوهاب

الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد

كلية البنات الأزهرية بالعاشر من رمضان

البريد الإلكتروني:saleh_hahmed@hotmail.cim

١- البيان العربي – ص٤٣٢، ٤٣٣ بتصرف.

الخاتمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد...

فقد ارتبطتْ (وحدةُ البيت) في التراث البلاغي بمصطلح "التضمين" وكان لهذا المصطلح الذي شاع في التراث البلاغي أثرُه في جعل البلاغة العربية في صورةٍ من يدعو إلى عزل العناصرِ المُكوِّنَةِ للخطاب وتوجيه البحث البلاغي قِبَلَ البحثِ في الجملةِ واستيفاءِ المكوناتِ البلاغيةِ وصحةِ الإسناد.

وليس الأمر كذلك، وإنَّما كان وراء الاهتمام بـ "وحدة البيت" حياةٌ تعتمد الترحالَ، وثقافةٌ تفتقد الكتابةَ والتدوينَ، وتقنعُ بالحفظ والمشافهة، فَأَلِفَتْ العربُ الإيجازَ، وعنيتْ به في التعبير عن أغراضها ومعانيها، وإذا كان لي من كلمةٍ أقولها، فإن معايشتي لهذه الدراسة قد أسفرت عن النتائج الآتية:

١- أن التزام البلاغة العربية- دون علم النص- بالأسلوب الفصيح، من أجْلِ توحيد اللسان العربيّ وما يتبعه من توحيد الثقافة والفكر والمجتمع، ومن أجل تأسيس رؤيةٍ عربيةٍ تتجلَّى فيها وحدةُ اللغة،هو مقصدٌ من أجلِّ مقاصد البلاغة العربية نصَّ عليه الجاحظ والمتأخرون.

٢- أن التزام علم البلاغة العربية بالنص الفصيح وضع حاجزًا بينها وبين دراسة العاميّ المبتذل، والغريبِ الوحشيّ، والمخالفِ لقواعدِ النحو، والمختلِ نظمُه سواء من جهة لفظه أم من جهة معناه، فهو

لا يدرس الأحاديث اليوميَّة واللهجات العاميَّة ... بخلاف علم النصّ الذي يَعني بحكم اتّساعِ مدلولِه دراسةَ النصوص بكافة أنواعها، الفصيحِ وغير الفصيحِ، ومن ثمَّ يدخل تحته عددٌ هائلٌ غيرُ محدود من النصوص: منها المحادثات اليومية والأحاديث العلاجية، وسائر الأجناس الأدبية كالقصة والأقصوصة والرواية والمسرح ... وسائر أنواع الخطابات الإعلاميَّة والرياضيَّة والتسويقيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة.

٣- تعددتْ وسائلُ الربط في البلاغة العربية متجاوزةً مبحثي الفصل والوصل وحروف العطف إلى عناصرَ أخرى أشار إليها عبد القاهر ولم يُسَمِّهَا باسمها، ومنها النظم والتعلق والحذف والشرط والتقديم والتأخير.

٤- ارتباط البلاغة العربية بالقرآن الكريم يدحض القول بأنها بلاغة الجملة، إذ كيف يُبنى القرآنُ على وحدة النصّ في أساليبه وتراكيبه ونظمه وتأليفه، ثم يُبنى كلامُ العرب على التجزئة والتفتيت، كيف وهم المخاطبون به، وإليهم وُجِّه التحدي؟!

٥- إنَّ الذين اتهموا البلاغة العربية بالنظرة الجزئية قد قنعوا بما في مصطلح "التضمين" من دلالةٍ إجماليةٍ ومعنى ظاهرٍ وبنوا عليه أحكامهم دون تفصيل وتدقيق، وهذا مخالفٌ لأسس النقد المنهجي الذي يدعو إلى رصد ظاهرة "وحدة البيت" وتعليلها في بيئتها وثقافتها ثم الحكم عليها في ضوء معطيات هذه البيئة وتلك الثقافة.

٦- من الأسس الفنية التي أقرَّها التراث البلاغي عند إنتاج الخطاب أوتحليله مفهوم (المطابقة) و(العناصر الخارجية) و(خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر)، وكلها اعتباراتٌ خارجة عن النص

إلى زمان النص ومكانه وعلاقة المتكلم بالمخاطب وطبيعة العصر وثقافته وظروفه السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وغير ذلك مما سَمَّتْهُ اللسانيات النصية بالعلاقات الخارجية للنصّ، وهو ما أشار إليه البلاغيون بمفهوم (المطابقة)، أمَّا ما يتصل ببنية النص فخير ما يمثلها قضية "النظم" و "التعلق" والفصاحة، وعبارات "النسج" و"التحبير" و"الوشي" و"البناء" و"النقش"، وهي عبارات ترددت كثيرًا في حديث عبد القاهر عن الضم والتأليف والنظم، وهي مصطلحات تحمل دلالاتٍ مهمة في الدراسة النصية.

المصادر والمراجع

-إعجاز القرآن لأبي بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني- الناشر : دار المعارف – القاهرة – تحقيق : السيد أحمد صقر.

-إعجاز القرآن لأبي بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني- الناشر : دار المعارف – القاهرة – تحقيق : السيد أحمد صقر.

-الاتساق النصي في التراث العربي" تأليف أ. نعيمة سعدية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة محمد خيضر- بسكرة- الجزائر- مجلة كلية الآداب – العدد الخامس- ٢٠٠٩.

-الإتقان في علوم القرآن" لجلال الدين السيوطي- تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم- مكتبة دار التراث- القاهرة-

-الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية – تأليف: أحمد الشايب- ط١١ مكتبة نهضة مصر –٢٠٠٠م.

-الأسلوب والأسلوبية – تأليف: عبد السلام المسدي–دار الكتب الجديدة- بيروت–الطبعة الأولى- ٢٠٠٦م-

-البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية –ضمن سلسلة دراسات أدبية – الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٩٨.

-البرهان في وجوه البيان – المؤلف: أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب : المحقق: د. حفني محمد شرف- الناشر: مكتبة الشباب (القاهرة) – مطبعة الرسالة – عام النشر: ١٣٨٩ هـ – ١٩٦٩ م.

-البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة- تأليف: سعد مصلوح- مجلس النشر العلمي- الكويت- الطبعة الأولى- ١٩٧٣.

-البيان العربي" دراسة في تطور الفكرة العربية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى" دكتور/ بدوي طبانة- الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية- الطبعة السادسة

-البيان والتبيين - طبعة دار الكتب العلمية المجلد الأول - الطبعة الثالثة- تحقيق: موفق شهاب الدين.

-التفسير الكبير، أو مفاتح الغيب" الناشر- دار الفكر- لبنان- الطبعة الأولى- ١٤٠١هـ ١٩٨١م .

-الخيال في التراث النقدي والبلاغي عند العرب - رسالة ماجستير- تاليف: عقيل عبد الزهرة مبدر الخاقاني- كلية الآداب- جامعة الكوفة- ٢٠٠١.

-السبك في العربية المعاصرة بين المنطوق والمتكوب-تأليف/ محمد سالم أبو عفرة- مكتبة الآداب- القاهرة- الطبعة الأولى- ١٤٣١هـ٢٠١٠م.

-السبك في العربية المعاصرة بين المنطوق والمتكوب-تأليف/ محمد سالم أبو عفرة- مكتبة الآدب- القاهرة- الطبعة الأولى- ١٤٣١هـ٢٠١٠م.

-الشعر الجاهلي- المؤلف: شوقي ضيف- طبعة دار المعارف- مصر- الطبعة الثامنة.

-الشعر والشعراء- المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري- الناشر: دار الحديث، القاهرة- عام النشر: ١٤٢٣ هـ.

-الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز- تأليف- الإمام يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني- تحقيق: عبد السلام محمد هارون- دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

-العمدة في محاسن الشعر وآدابه- المؤلف: أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ)- المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد-الناشر: دار الجيل-الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ .

-الكامل في اللغة والأدب- المؤلف: محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: ٢٨٥هـ)- المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم- الناشر: دار الفكر العربي - القاهرة- الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧

-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في جوه التنزيل للزمخشري- دار الكتب العلمية - لبنان- الطبعة الأولى- ١٤١٥هـ١٩٩٥م.

-اللغة العربية معناها ومبناها- تأليف: تمام حسان - الهيئة المصرية العامة- القاهرة- ١٩٧٣ .

-المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - تأليف: ابن الأثير- تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد- المكتبة العصرية- بيروت.

-المسكوت عنه في التراث البلاغي- تأليف: دكتور محمد أبو موسى- الناشر: مكتبة وهبة- مصر- الطبعة : الأولى- ١٤٣٨هـ ٢٠١٧م.

-المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب- تأليف دكتور/ نعمان بوقرة - عالم الكتب الحديث- الأردن- ط الأولى- ١٤٢٩هـ٢٠٠٩م.

-المعنى بين الأدب والبلاغة. تأليف: دكتور: محمد بركات حمدي- دار النشر- عمان- الأردن-١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

-الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء- المؤلف: أبو عبيد الله بن محمد بن عمران بن موسى المرزباني- بدون تحقيق.

-الوساطة بين المتنبي وخصومه- المؤلف: أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني (المتوفى: ٣٩٢هـ)- تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي- الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

-بلاغة الخطاب وعلم النص- تأليف: صلاح فضل- الناشر: عالم المعرفة- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت- ١٩٩٢-.

-تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن- المؤلف: عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري (المتوفى: ٦٥٤هـ)- تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف- الناشر: الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي-

-دراسات في النقد الأدبي محمد مصايف-الشركة الوطنية- الجزائر- ١٩٨١.

-دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني . تحقيق/ محمود محمد شاكر- مطبعة المدني . الطبعة الثالثة. ١٤١٣هـ١٩٩٢م

-شروح التلخيص - دار الكتب العلمية- بيروت- بدون تاريخ.

-عناصر التماسك النصي بين نظرية النظم وعلم النص للباحث- مجلة كلية البنات الأزهرية بالعاشر من رمضان- العدد الأول.

-في السانيات ونحو النص " تأليف دكتور / إبراهيم خليل – جامعة الأسكندرية.

-قواعد الشعر- المؤلف: أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني أبو العباس، المعروف بثعلب (المتوفى: ٢٩١هـ)- المحقق: رمضان عبد التواب- الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة- الطبعة: الثانية، ١٩٩٥م

-كتاب الصناعتين – تأليف أبي هلال الحسن بن عبد الله سهل العسكري- تحقيق:الدكتور مفيد قميحة- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

-لسان العرب لابن منظور- دار إحياء التراث العربي- بيروت – لبنان- الطبعة الثالثة – ١٤١٩هـ١٩٩٩م- مادة(ن.ص.ص) المجلد١٤.

-مبادئ الوصول إلى علم الأصول- للعلامة الحلي أبي منصور جمال الدين الحسن بن يوسف-تحقيق:عبدالحسين البقال، ط٣، الإعلام الإسلامي- ١٤٠٤هـ.

-نحو لسانيات نصية عربية" للدكتور/ رشيد عمران – شبكة التواصل الاجتماعي

-نحوالنص بين الأصالة والحداثة " تأليف: دكتور/ أحمد محمد عبد الراضي- الناشر. مكتبة الثقافة الدينية- مصر- الطبعة الأولى- ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

-نسيج النص- تأليف: الأزهر الزناد- طبعة المركزالثقافي العربي- بيروت،١٩٩٣م.

الفهرس

الموضوع

مقدمة

الفصل الأول: البلاغة العربية ولسانيات النص

المبحث الأول: مدخل إلى البلاغة العربية

المبحث الثاني: مدخل إلى لسانيات النص

مفهوم النص في المعاجم العربية

مفهوم النص في المعاجم الغربية

الفصل الثاني: وحدة البيت

المبحث الأول: وحدة البيت في التراث البلاغي

المبحث الثاني: وحدة البيت في ضوء لسانيات النص

المبحث الثالث: مآخذ لسانيات النص على البلاغة العربية

الفصل الثالث: مآخذ اللسانيات في ميزان النقد

المبحث الأول: حقيقة النظرة الجزئية في التراث البلاغي

المبحث الثاني: النظرة الكلية في البلاغة العربية

الخاتمة

المصادر والمراجع

الفهرس